

ملحمة رائعة وتحول مجيد

بقلم : الأزهر النفطي

عندما نقف على ما تحقق لبلادنا من مكاسب جمّة ومنجزات عملاقة في مختلف مجالات الحياة في زمن قياسي قوامه ملحمة رائعة من الفعل والإنجاز والإصلاح ندرك أننا بصدد كتابة روائع مسيرة مضفّرة رسم ملاحمها ووضع أهدافها بإبداع العباقرة والعظماء قائد فدّ وبطل مفلح أحبّ تونس وأخلص لشعبها تفاني في خدمتها وأوفى بالعهد المسؤول لشهادتها الأبرار يوم بادر بشجاعة أهل العزم وأنقذ البلاد والعباد من مجاهل الضياع وظلمات الهوة السحيقة وكوابيس الحيرة والسؤال عن المصير المجهول بثورة إصلاحية هادئة تتلخّص مبادئها الحضارية وأهدافها الإنسانية النبيلة في بيان السابع من نوفمبر 1987 حيث استندت إلى دستور البلاد لتحسيس التغيير على أرض الواقع: فأغلق باب الإقصاء والتهميش وسدّت المنافذ أمام الانتهازيين والأصوليين ومحترفي الغوغائية والتهريج واحتلت الثقافة موقعها المتقدّم في مجتمع التغيير بتكريس سمة أساسية من سمات الخطاب السياسي واضحة المعالم والأهداف ترفض الجلوس على الرّبوّة بدعوة

الفرجة والحياة وتسعى إلى مواكبة التطورات العميقة والسريعة التي يشهدها العالم في جميع الميادين ولا سيما في مجالات الثقافة والمعارف والعلوم والفنون وتقنيات الإعلام والاتصال بما يضمن الأمن الثقافي للبلاد .

على هذا النحو تحظى الثقافة في بلادنا بحوافز سخية وتشريعات متواصلة تحفز المستثمرين على دعمها بالاستثمار والمراهنة على القطاع باعتباره قطاعا حيويا مربحا كما تحظى المبدعين على المثابرة والتميز في مجالات الفن والإبداع .

فالمراهنة على الفعل الثقافي تجعله قادرا بامتياز على التأقلم مع المستجدات المتسارعة والمساهمة في تثبيت مقومات المجتمع المدني وتشييد أركان افروح الدولة العصرية وبناء الشخصية الثقافية للمواطن التونسي وفق نظرة متبصرة للمستقبل واستشراف متسائل لمكانة تونس بين الدول المتقدمة في مطلع الألفية الثالثة مما يبرز الميزة الرفيعة التي تحتلها الثقافة في مجتمع التغيير باعتبارها لبنة أولية من لبنات منظومة الرعاية الاجتماعية داخل مكونات المجتمع المدني ومقوماً أمثل لتأصيل الكيان والحفاظ على المكاسب الوطنية والدفاع عن الخصوصية والهوية والقيم الأخلاقية والمعرفية وتنمية الحس المدني لدى الأفراد والجماعات والتفاعل مع ظاهرة العولمة ومتغيراتها .

العولمة وفضاءات التشاؤف

بقلم : لمياء جتات

العولمة ابتدأت خطابا سياسيا وانتهت خطابا اقتصاديا وظهرت العولمة بعد سقوط الايديولوجيتين الضديتين للمعسكرين الشرقي والمعسكر الغربي.

وهذا يعني أن قولنا بسقوط الإيدلوجيا وانتهاء الخطاب الإيديولوجي في العصر الحديث موقف ومذهب في القول لا صحة له لأن العولمة فهمنا هذا أم لم نفهم خطاب ايدولوجي رغم أن العالم الأقوى اقتصاديا أي العالم الأول يحاول ويجتهد لإخفاء هذه "الحقيقة الشعالة" على حدّ تعبير محمد أركون والحقيقة فيها ما فيها من إرباك لما اطمئنا إليه - نحن العرب - طويلا.

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

العولمة تحمل بين طيّاتها عرضا للقوى بين الحضارات وتخفي صراعا بين الثقافات والاقتصادات : صراع وعرض من أجل السيطرة والاحتواء.

وانقسمنا على أنفسنا إلى مذاهب وآراء: منا من نادى من أجل التعامل مع الثقافات الأخرى طالما أن الثقافة العربية أصلا قد أخذت ومنذ القدم فما بالك الآن عند عديد الثقافات الأخرى كالفرس واليونان.

ولا أحتاج لأقول للقارئ إن الشقّ الثاني لا يرى اضطرارا للتعامل مع هذا الأخير.

ويعتمد هذا الشقّ في الأغلب الأعمّ على ضرورة الائتكال على الأنا ولم أستطع فوق هذا أن أصنّف هذا الشقّ ففيه المثقفون العرب على اختلاف اتجاهاتهم وانتماءاتهم ومواقفهم فهم يرون في هذا التواصل خطراً ذهنياً صرفاً وهو : نظر يحمل حرباً بين الأنا وذاته وموروثه وبين الأنا والآخر على كلّ الجبهات والمستويات.

(العولمة) مقولة على غاية من الخطورة على الأقل في مستوى التفكيك لهذا الخطاب من أجل إنتاجه ، خطاب العولمة يطال كأوّل هدف الهوية وتحديداتها منها اللّغة.

لا يخفى هذا الصّراع والتنافر الحادّ بين المتشبين باللّغة العربية الفصحى والدّاعين المذكّرين باللهجة العاميّة، يتأتّى الخطر أساساً من تحشّش اللّغة الفصحى الأمّ عن غير قصد أو عن قصد، أكثر قنوات جذبا ونقص وسائل الإعلام وكذلك قطاع التربية والتعليم فالأحدر بمستعملي العاميّة في المجالات التي ذكرنا استبدالها بفصحى وإن كانت على المستوى الصّفر من الإبداع أو الأدبيّة هذه حرب بين اللهجات المختلفة داخل اللّغة الواحدة .

أمّا الصّراع الثاني فصراع بين عديد اللغات:

عربيّة / فرنسيّة

عربيّة / أنقليزيّة

هذا الصّراع هو الآخر حادّ وصل بالشعوب حدّ قذف الشعوب الأخرى من خلال تصنيف لفتها الناطق أهلها بما فيقال اليوم إنّ اللّغة

العربية لم تعد لغة العصر لأنها لغة أدبية وليست لغة العلم والتكنولوجيا! وفي المقابل يقال للغة الأنكليزية إنها لغة العصر والحاجة ولديّ توضيح لهذه الادّعاءات المصابة بإحساس الدونية بأيّ لغة تحدّث الخوازمي في علم الرياضيات وابن الهيثم في علم البصريات وابن سينا في علم الصيدلة والطب وغيرهم من عدد بلا آخر ولعلّه في هذا الإطار نفخر بما أنجزته تونس إذ بادرت إلى النهوض بالبحث العلمي وذلك لتشجيع الكفاءات من خلال برنامج متكامل بدايته كانت مدينة العلوم والهاء وليس أخيراً بالرفع في المنح المخصّصة للبحث العلمي وكنا وضحنا هذا في فصل سابق.

نقول نحن على قطاع التربية والتعليم لما له من وظيفة في تقوية عامل اللغة كعنصر مثبت للهوية التي تعني وجود "الغير" بالضرورة بكلّ ما ترمز إليه كلمة جبلي بالمعالي الحضارية الخاصّة بكلّ شعب.

صراع اللّغات أو عقدة التفوّق أو عقدة الإحساس باضطهاد عنصر مهم في الهوية، كلّ هذا لن يمرّ مؤثراً السّلامة ما لم يجرّ معه توتراً بين الثقافات واشتمتزاز في بعض الحالات فكيف يمكن تعريف التثاقف أو حوار الحضارات في ظلّ عدم استقرار فكري ناتج عن عدم ارتياح؟! يقول الدكتور برهان غليون "بينما تنجو دعوة الأصالة على توحيد نفسها بالدين، تنجو دعوة الحداثة إلى مطابقة ذاتها مع العلم، وهكذا أصبح الصّراع بين الهوية والمعاصرة والدين والعلم والتقدّم والمحافظة مركز تفحّر أزمة المجتمع العربي وأداة تعريفها وحلّها الوهمي في الوقت

نفسه" هكذا يضع الشاهد مواجهة الأصالة والدين والعلم وهو يكشف عن صراع بين الرؤى المعرفية والإيدلوجية والسياسية فالأفق ضيق ولا يتسع لمشروع حضاري وهذا هو ما يعنيه وجود أزمة داخل المجتمع العربي... كأن الأصالة بوصفها طاقة شحن قيمية وأخلاقية ووجدانية، ليست بحاجة إلى ما يدور في العالم ولكأن العلم الحديث ليس بحاجة إلى الأصالة وكل ما له علاقة بالإنسان كإنسان.

على أن هذا الصراع بين الأصالة والمعاصرة ليس بأقل مما كان بين الفقيه ذاته والمتصوف، وعلى كل حال فتجربة الإمام الغزالي سندنا فقد فضح - في عصره - نزوع الفقهاء لاحتكار السلطة العلمية (2) إذ "يرى أن علم الفقيه لا يبلغ مرتبة علم المتصوف من حيث التجرد في إدراك الحقيقة بينما يغلب الفقيه أغراضه الدنوية، فالفقهاء علماء الدنيا من علماء السوء إذ قصدهم التمتع بالدنيا والتوصل إلى الجاه، ومن ثم ارتباطهم بالسلطان إما لطمع أو لخوف"

لنتفق أولاً أن ما يتوصل إليه العلماء في كل مصر وعصر هو ملك للإنسانية بغض النظر عن الديانة واللغة والموقع الاقتصادي فهاهي الدول اليوم تهمل ثقافيا واقتصاديا - رغم التفاوت الهائل في القدرات - من بعضها البعض فانظر إلى دول من افريقيا تتواصل مع دول آسيا وهكذا...

ورغم هذا التبادل الاقتصادي والثقافي هناك تشبث بالخصوصية الحضارية فلا مغامرة تامة ولا نمائلا كاملا، كوريا الجنوبية بلد صغير

وضعيف الإمكانيات حققت معجزة اقتصادية وقد تحقق معجزة التوحيد مع كوريا الشمالية ورغم ذلك يحافظ هذا البلد على تراث وإرث حضاريين جذورهما تعود إلى القبائل القديمة التي هاجرت من الصين واستوطنت في الشبه الجزيرة الكورية.

إنّ الخصوصية الحضارية تقرّ بالتفاخر لكن بلا امتياز لطرف على آخر، وبهذا التعريف وحده للخصوصية الحضارية لن نهب ثقافة ما تفضلا ما. فلكل حضارة آدابها وقوانينها ومعارفها وبهذا كلّ يظلّ الأنا أنا والآخر آخر.

هذا الفصل يوحي بالقطيعة بين الحضارات لكن هل تسلم معارف كل حضارة من تدخل الآخر؟ وخاصة في العلوم على فروعها. يبدو لي أنّ الحضارة الروحية لكلّ شعب هي إرث خاصّ، الأهازيج في وادي السيلكون بالهند ليست هي الأغاني الشعبية في المغرب العربي كل هذه التعبيرات الثقافية على بساطتها هي لصيقة أيما التصاق بأرض ولادتها وبهذا فقط وجب احترامنا لغيرنا وبالطبع احترام الغير لنا.

وإذن فالحديث عن صراع ثقافي داخل منظومة العولمة يعني بالتأكيد أن الأنا يضمّر نفي الآخر أو أن الآخر عاقد العزم على دحر الأنا، لا نحجل في الإقرار بهذا، فالعولمة تخفي تعددا لا تريد هي الإقرار به وتغطي هذا سماء كثيفة من محاولات الإذهال عن الواقع والحقيقة...

علينا أن نؤمن بتميّز الأنا عن الآخر في المقابل تميّز الآخر عن الأنا وهذا الاعتراف وحده هو الذي يشعل لنا الضوء الأخضر للخلق

والإبداع والاجتهاد وعلى جميع الأصعدة.

أسئلة تتوالد : هل الحداثة قطع معرفي مع الموروث ؟! وهل الحداثة هي إبداع الآخر وجمود الأنا ؟!

أستحضر شاهدا سيدنا علي كرم الله وجهه "لا تكن عبد غيرك وقد جعلك الله حراً" قبل أن يصدق الشابي :

"كذا صاغك الله يا ابن الوجود

وألقنتك في الكون هذي الحياة

فما لك ترضى بذل القيود

وتحني لمن كبلوك الجباه ؟

والعولة ليست سياسة ثقافية فحسب بل واقتصادية بالأساس. تونس بلد صغير وهناك فرضية تقول إنه كلما كبر المجال الحيوي كلما أتيحت فرص التميز والنجاح من خلال النهوض الاقتصادي. هذه الفرضية تنهل من الفكر الستاليني أو الماركسي ومع ذلك هذا الانتماء لا يقلل من أهمية وشأن هذه الفرضية ولكن توجد دول صغيرة تجاوزت هذه النظرية وحقق ما لم تتوقعه الماركسية نفسها ربما لأنها كغيرها خطاب عاطفي / إيديولوجي : انظر البرتغال : بلد صغير حقق في القرن الخامس عشر تطورا تكنولوجيا مذهلا في مجال وتقنية السفن مما سمح لها بغزو عديد البلدان بحريا. وانظر إلى تاريخنا المعاصر، إلى بلاد مثل سنغفورة تعد ثلاثة آلاف كلم² كلنا يعلم أنها بلد يصدر إلى الخارج مواد تكنولوجية بقيمة 75 مليار دولار، ولا نستطيع أن نخوض غمار

هذا الموضوع دون أن نذكر للقارئ كمثال، كوريا الجنوبية التي كانت وإلى وقت قريب في الستينات أفقر بكثير من بعض الدول العربية كمصر مثلا، اليوم يصدر هذا البلد بضائع بقيمة مائة وخمسين مليار دولار أي أكثر من كل الدول العربية مجتمعة مع بترولها وبيروكيماها. البعض من علماء الاقتصاد في كل العالم دعوا على عدم التسرع بالحديث عن الحاجة إلى سوق عربية مشتركة أو اقتصاد موحد لأن هذا الحديث غير مجد، علينا أولا النهوض بالاقتصاد على المستوى القطري وقد سعت تونس لتطوير هذا المجال من خلال عدة جوانب منها تطوير التجارة الخارجية إذ تشير التقديرات إلى أنه بلغ حجم المبادلات التجارية التونسية مع الخارج خلال التسعة الأشهر الأولى من سنة 2005 ما قيمته 9985.8 مليون دينار عند التصدير و 12510.4 مليون دينار للتوريد.

<http://Archivebeta.Sakhrir.com>

وحسب مصادر وزارة التنمية والتعاون الدولي فقد سجلت المبادلات التجارية للتسعة أشهر الأولى ارتفاعا بنسبة 12.4٪. على مستوى الصادرات و 9.3٪. على مستوى الواردات بالمقارنة مع التسعة أشهر الأولى لسنة 2004

الفكر الاقتصادي وحده هو الذي يمكن كل قطر من أداء متميز وهذا الأداء ضامن فعال لوفرة الإنتاج والجودة وهذه مقولة ترتبط بمدى النجاح، ويستوي هذا كالحديث عن اتحاد قمرقي أو سوق عربية مشتركة أو وحدة اقتصادية، حديث لم يعد متوازيا ومتماشيا مع

متطلبات المرحلة ومن المنطق بمكان أن نتحدث عن تفاوت في الموارد الاقتصادية. أمّا عن الخطة التونسية في النهوض بالموارد الاقتصادية هذا الاهتمام الناتج عن خطة للتحكم في الموارد الاقتصادية وخاصة الاستهلاكية مثل الطاقة الكهربائية، وتواجه هذا الاهتمام عدّة صعوبات منها ارتفاع كلفة الأجهزة المقتصدة والمصنعة في الخارج.

وقلّ الحديث المشابه عن الموارد المائية وهي من الموارد المهمة والاستراتيجية ويسعفنا التاريخ أنه عبر التاريخ القديم والوسيط وكذلك الحديث أنّ الموارد المائية كانت سببا لأزمات سياسية واقتصادية بالتحديد.

وتشير الدراسات إلى أنّ احتياجات العالم العربي من المياه تقدّر بحوالي 286 مليار متر مكعب وأن هذه الحاجة إلى المياه ستزداد سنويا ففي حين كانت حاجته من المياه عام 2000 ما يقارب 368 مليار م مكعب فإن حاجته منها ستبلغ عام 2010 حوالي 402 مليار م مكعب وعام 2020 حوالي 492 م مكعب .

كلّ هذه التقديرات تؤكد حاجة العالم العربي إلى الثروة المائية نظرا للازدياد المطرد للسكان مقابل عدم الاستعداد لهذه الحاجة الملحة وخاصة دول زراعية تعتمد بالأساس في زراعتها على المياه مثل مصر. أرقام تنبئ بشح مياه العالم وتناقصها عاما بعد عام.

وحين نتحدث عن فقر المياه في العالم العربي فإننا نعني بما في ذلك بلدان المغرب العربي بما في ذلك تونس.

ويرجع الخبراء هذا الخطر إلى كثرة المجالات الاقتصادية التي منها الصناعية والإنمائية التي تستهلك كميات ضخمة من هذا المخزون هذا من جهة، ومن جهة ثانية أن مصادر تلك الثروة المائية محدودة ولا تتجاوز في أحسن الحالات مياه الأمطار والمياه الجوفية بخلاف مصادر الثروة المائية في بلاد مثل لبنان التي تتنوع مصادر المياه فيها:

1- مياه الأمطار .

2- الثلوج المتراكمة المتساقطة والمياه المستخرجة منها

3- مياه الأنهار والينابيع.

تونس تنتظر منا تضحية وجهدا جديا لإنجاح الخطط الاقتصادية لتخطي مشكلة شح المياه وكذلك ضخامة الاستهلاك الكهربائي. الموارد البيئية مصدر اقتصادي وجب التعامل معه بفنّ وبحذق لضمان صلاحيات التنسيق بين هذه الجهود لضمان تحقيق الأهداف المرجوة ما دامت الهيئات الدولية رغم إدراكها لمدى خطورة الوضع ورغم الحماس الذي تبديه بعقد القرارات والاتفاقات من أجل إنقاذ دول العالم من الأخطار التي تهدد الإنسان في وجوده نفسه.

لا يخفى أن الدول المصنفة الكبرى هي المصدر الأول والأقوى الضار بالبيئة فقد أوضح مؤتمر ميلانو سبتمبر 2003 أن التغيرات المناخية وتوافر الأدلة القاطعة على مسؤولية الإنسان عن ارتفاع حرارة كوكب الأرض بشكل مهدّد حياة البشر.

فالحفاظ على الموارد البيئية وعلى سلامة المحيط يعني تجاوز أهمّ

التحديات التي تواجه تونس وكل بلاد العالم.

من المبادرات الطريفة والجريئة ما قامت به بعض الدول بعد مؤتمر ستوكهولم إذ بادرت إلى وضع قوانين خاصة بها من أجل حماية البيئة داخل حدودها وهذه القوانين ذاتها تعطيهم حقّ مقاضاة الدول الأخرى التي قد تعتدي على حرمة بيئة تلك الدول وهذه القوانين في حال خرقها تتم بموجبها مقاضاة الدولة المخاورة التي قد تلحق الضرر بيئيا بجارتها.

يذكر لتونس البرامج الرائدة لمعالجة قضايا البيئة بما فيها التلوث البيئي وكذلك تحلية المياه العميقة التي تتطلب تجهيزات ضخمة وهذه العملية تجعل الماء حلوا للاستغلال العادي.

الإنسان هو أول ضحايا المشكلات البيئية وربما في الأغلب الأعم هو مسبب تلك المشكلات هذا واضح، لكن لا ننسى أن الاستهانة بالثروة البيئية تعتبر معضلة فنحن في حاجة ماسة إلى تربية بيئية على أساسها يمكن إدراك ما يجري حولنا، هذا على الأقل. دورنا نحن، أمّا الدور الآخر فهو دور الكف عن إلحاق الضرر البيئية عن طريق استعمال وتخريب الأسلحة المتطورة وغير المتطورة، فهذا من مسؤولية تلك الدول فلا دولة -مبدئيا- من الدول النامية تقدر أن تلحق بالدول المصنعة مسؤولية الأذى الفادح الذي أضرّ بالبيئة بل علينا أن ندرك أنّه إذ كان بإمكاننا القيام بفعل ما وبجهد ما لتجنب الأمراض والأوبئة الناجمة عن الظروف والأوضاع الرديئة الناجمة عن بيئة غير سليمة .

فلنقل دون تردّد ودون انتظار، فلا ننسى أنه في سنة 1992 وتحديداً في مؤتمر ريودي جنيرو حيث تمت مناقشة التلوث البيئي والمخاطر الناتجة عن التحارب الكيميائية وتضرر كوكب الأرض وطبقة الأوزون لن ننسى والتاريخ لا ينسى شيئاً أنه في هذا المؤتمر تعهدت الدول الصناعية بتقديم مساعدات للمحافظة على البيئة وإرساء مشاريع تكنولوجية تخدم الطبيعة وتقدّم للأرض عساها تغفر لنا ما فعلنا فيها ولكن وبعد مرور أكثر من عشر سنوات لم يكفنا ما ألحقته تلك الدول المصنعة بطبيعة وبيئة الدول النامية بل نكصت وعودها.

وتراجعت عندما تمّ الإتفاق عليه آنفاً كما رأي القارئ في دولة مثل الولايات المتحدة الأمريكية التي تتحمّل لوحدها المسؤولية في انبعاث 25.٪ من الغازات الدفينة الضارة والمسببة في الإحتباس الحراري.

تلك هي ضريبة العلم والتقدّم التقني وتلك بالتأكيد إحدى نتائج التفاوت بين دول الشمال ودول الجنوب، حقيقة حقيقية صاح من أجلها ذو الضمائر الحيّة في كلّ العالم وبالمناسبة أقصّ عليكم هذه الحكاية وهي ليست خرافة لأن الخطر الناتج عن الخرافة، المتربص بمن يقضي الليل في أحاديث اللهو والأباطيل، هو أن يفتن العقل فينتهي الأمر بالهذيان... كما حدث لرجل يسمى خرافة ذلك أن خرافة في الأصل إسم علم إسم رجل من بني عذرة استهوته الجن كما تزعم العرب مدّة ثم لما رجع أخبر بما رأى منهم فكذّبوه حتى قالوا لما لا يمكن أن يصدّق: حديث خرافة "دراسة الغائب عبد الفتاح ليليطو المقدمة ص 13

والحكاية تقول أنه يحكى في الصين القديمة أن بستانيا بسيطا اكتشف أداة جديدة للزراعة وعدت بنفسه وتحسين إنتاج البساتين، هذا البستان عندما أعلن عن اكتشافه ضحك محتقرا نفسه، متذكرا قولة معلمه التي فحواها وانتبهوا إلى حكماء الصين حين يعظون : عندما توجد اختراعات مخادعة مأكرة سوف تؤدي إلى آداءات ونتائج مأكرة مخادعة أيضا وحيث هناك آداءات مأكرة وستكون هناك قلوب مأكرة ومن ثلك في صدره قلبا مأكرا سوف يكذب ويشوه نقاء طبيعته سوف يزعج ويقلق هدوء روحه ومن يقلق هدوء روحه لن يشعر في نفسه بالسكينة أبدا واسترسل البستاني قائلا:

إني يجب أن أكون خجلان لاستعمالي هذا الإختراع

إنّ ما تفتنّ إليه الأسلاف السنيون الحكماء نقف عليه اليوم : هوة بين الشمال والجنوب، الشمال يحتقر الجنوب لأنه يراه الأضعف من اين يتأتى لنا حوار الحضارات ؟

ثمة باحث امريكي اسمه Samuel Hintington كتب مصنفنا بعنوان " صراع الحضارات"

تنبأ فيه بأن الحروب القادمة هي حروب ثقافات وحضارات وليست حروب مصالح ولكن لا لأن هذا الباحث الأمريكي يرى في الأمر صراعا فلا بدّ أن نسميه كذلك، لا، لم لا نبحت في إمكانية أن تكون المسألة مسألة حوار بين الثقافات !؟

لقد ظلت الترجمة وما زالت إلى الآن قناة تواصل بين ثقافات الترجمة ترينا عملية نقل نص من لغة إلى أخرى فاختيار المرء دليل عقله. الترجمة أكثر من ذلك لأنها تخرجنا من ثقافة وطن إلى ثقافة وطن آخر ترينا ما في جراب الآخر ماذا اختار أو ليس في فكر وعقل الآخر خلاصة للأنا؟

لكن هل يقودنا الحديث عن حوار الثقافات أو صراع الثقافات إلى الحديث عن صراع بني الإنسان؟

هل أن الحوار الذي يجري بين المسلمين اليوم وغيرهم من ذوي الديانات الأخرى هل هو حوار بين شعوب أم هو حوار بين:

إسلام = مسيحية

وإسلام = يهودية

أسس العباسيون ركنا مسرحيا للحوار بين الثقافة العربية وغيرها من الثقافات الأخرى وخاصة منها الثقافة الفارسية والثقافة الاغريقية والهندية هذا الركن المسرحي هو بيت الحكمة لماذا سمي ذلك المكان بيت الحكمة؟

إذا قلنا إن الحكمة هي الفلسفة فذلك فضاؤها الذي يفتح ذراعيه ليحتضنها حكمة هندية وسريانية ويونانية وخاصة الفارسية لكن لا ننسى أن بيت الحكمة درست في علوم أخرى كعلم الفلك وعلم الرياضيات وعلم الطب ...

وتخبرنا الكتب التاريخية أن الخليفة العباسي هارون الرشيد (192

هـ 808 م) أنه قد جلب لبيت الحكمة الذي أسسه كتباً من عند البيزنطيين ووضعهما في خزانة بيت الحكمة وذلك من خلال تلك الكتب المستحلبة من بلاد الروم

المهم هنا هو فإن التأسيس لهذا المقول العلمي أو القلعة العلمية لأنه في مابعد زاد اهتمام المأمون بهذا الأمر.

لقد أدرك العرب القائمون على الدولة العباسية أنذاك أن لا ضرر من التعارف بين الثقافات بل النفع كل النفع في النهل من ثقافات الآخرين مسرحاً وفلسفة وقصصاً وحتى (ألف ليلة وليلة) رغم أن بعض النقاد قد تحدث عن عدم فاعلية هذا الأثر المترجم عن الفارسية وحصره في أحاديث سمر تدعو للاسترخاء والنوم لا إلى إعمال القفل والافادة ، يعني هذا أنه في أوج الإحساس بعقيدة مغايرة وفي قلب الشعور بأن العرب (خير أمة أخرجت للناس) التفت العرب للاطلاع والمعرفة.

إننا إزاء عقيدة معرفية أقوى من عقدة التفوق ، إذ لم يحس العرب وقتئذ بالتفوق وبعدم الحاجة إلى غيرهم أو ربما أحسّوا وتجاوزوا.

الهوامش :

برهان غليون : اغتيال العقل ص 142

راجع د عبد الرزاق عيد : سدة هياكل الوهم ص 177

انظر العربي عدد 547 ص 120

صحيفة الصريح : السبت 15 أكتوبر 2005 ص 3

العربي عدد 545

بانوراما : الطبيعة البشرية (1)

بقلم : عادل بوعلي

تقديم

إن تطوّر المباحث المعرفية المعاصرة وسيطرتها على ميادين كانت شبه مجهولة قد زعزع مكانة الفلسفة ضمن تصنيفات المعارف الإنسانية فأصبحت عملاً تابعاً للعلوم عند البعض ومبحثاً أخلاقياً عند البعض الآخر، فكأنّ مادّتها قد أستهفدت. ولكن شبه جان يياحي الممارسة الفلسفية "بالإمبريالية" فإن هذا التشبيه قد فقد معناه بمجرد أن ظهرت علوم أخرى أطاحت بالقول الفلسفي الذي يطمح إلى الهيمنة على بقية المعارف. ومن بين تلك المباحث المعرفية، مبحث الأنثروبولوجيا الذي يحاول التخلص من كلّ إقرار فلسفي أو توجيه مذهبي إيديولوجي. إنه يطمح على أن يكون قولاً مستقلاً بذاته لا ينتظم بالضرورة ضمن إطار فلسفي محدّد، وإذا كان تاريخ الفلسفة يمتدّ زمانياً عبر آلاف السنين فإن الأنثروبولوجيا كعلم حديث العهد نسبياً ورغم حداثة فإنه إستطاع منافسة الفلسفة في زعامة المعرفة، وإن كانت الفلسفة في وعيها بذاتها تعتقد بأنّها أم العلوم فإن هذه النظرة الكليانية قد تلاشت مع ما حققته العلوم الصحيحة من تقدّم، والعلوم الإنسانية من تطوّر مكّن من إنشاء مفهوم حديد للإنسان على أنقاض التصور الميتافيزيقي للطبيعة البشرية. هذا لا يعني أن الإقرار بتاريخية الإنسان كان منذ البداية إقراراً فلسفياً فبمجرّد أن ظهرت الفلسفة الهيكلية حتى تخلّت عن مفهوم الطبيعة

البشرية بإعتبارها ماهية مجردة، ثابتة، كلية مفارقة للتاريخ إعتبارا لكون الإنسان عقلا لكنه "عقل في التاريخ".

إنّ هذا الإقرار بتاريخية الإنسان كان فاتحة لنشأة عصر على أنقاض العصر الميتافيزيقي بل إنه عصر العلوم حيث إلتحأ الإنسان إلى العلوم بدلا من القوى المفارقة لفهم طبيعة وحل مشكلاته قال رالف لتون "غير أن أولئك الذين ينشدون مساعدة العلم كثيرا ما يجدون أنفسهم لسوء الحظ في وضع أشبه ما يكون بوضع المريض الذي ينتقل من طبيب أخصائي إلى آخر دون أن ينجح في الحصول على فكرة عامة عن مرضه أو على خطة موحدة للمعالجة... لذا لا بدّ من إجراء تركيب جديد بين مختلف العلوم ... حيث ينشد علم الأنثروبولوجيا الشمول" (1).

إنّ ما يميّز الخطاب الأنثروبولوجي عن التصورات الميتافيزيقية كونه يهدف إلى دراسة الإنسان من الناحيتين العضوية والثقافية. تقول الباحثة الأنثربولوجية الثقافية ماغريت ميد: "نحن نصف الخصائص الإنسانية البيولوجية والثقافية للنوع البشري عبر الأزمان وفي سائر الأماكن" (2) وبناء على ذلك تلوّح لنا دواعي هذا البحث في أن مبحث الطبيعة البشرية كمبحث أنثربولوجي يسعى إلى تخطّي التصورات الميتافيزيقية في فهمها للإنسان لبناء تصوّر متكامل لأعمال الإنسان وسلوكاته وإنتاجاته في الماضي والحاضر.

إنّ كلّ محاولة تهدف إلى إدراك علاقة الطبيعة بالثقافة تتطلّب منهجيا

معرفة معاني الطبيعة ودلالات الثقافة ضمن المسيرة الأنثروبولوجية التي تسعى إلى إستعادة هذه الأسئلة المحورية: نقول طبيعة الشيء ما هيته وهي مجموع الخصائص التي تُميّزه عن غيره وبالمثل نقول طبيعة الإنسان أي ما يميّز به من صفات فطرية عزيزة تلقائية وهي ضدّ الصفات المكتسبة بواسطة التجربة الشخصية أو الإجتماعية (3) وفي مستوى آخر نقول طبيعة الإنسان بمعنى تركيبته العضوية وخصائصه البيولوجية. فهل أن إنسانية الإنسان ترتدّ إلى المكونات العضوية قد تكون المرحلة الطبيعية فعلاً هي مرحلة الحيوان / الإنسان أو الحيوان الذي ليس بعُدّ إنساناً أو أنّها المرتبة الحيوانية للإنسان أم أنّ إنسانية الإنسان تُكتسب بمعنى أن يُميّز الإنسان هذا الحيوان الاجتماعي عن غيره من الكائنات هو الثقافة؟ وبالتالي ندرس مسألة الطبيعة والثقافة في ضوء التداخل والتفاعل بين الجوانب البيولوجية والثقافية للإنسان. ولكن ما مفهوم الثقافة؟

تعني الثقافة أنثروبولوجيا مجموع الأنشطة الإنسانية المدرجة ضمن إطار ثقافي معيّن الأكل ملأ ليس إستجابة لحاجة الجوع فقط إنّما هو طريقة تلبية مشروطة بالمحيط الاجتماعي الثقافي فالإجماع على طريقة التلبية يشكّل غطاءً من السلوك أو "طريقة حياة" أو الشكل الذي تبدو عليه أنواع السلوك نسميه ثقافة يقول رالف لنتون "الثقافة هي الشكل الذي تبدو عليه أنواع السلوك المكتسبة وما ينجرُّ عنها من نتائج بحيث تكون عناصره المكوّنة مشتركة ومتداولة بين أفراد مجتمع معيّن" (4)

إذا الثقافة هي نموذج أو كلّ منظم يحتوي على عدد من الجزئيات المتعلقة بأنواع السلوك.

تعمل الثقافة على تشكيل شخصية الأفراد وتحديد سلوكهم وبالتالي نلاحظ دائماً أن أعضاء مجتمع ما يشتركون في عدد كبير من المواقف التي تتحلى في أشكال عديدة من السلوك.

وهو ما يُعبّر عنه رالف لتون "بالشخصية القاعدية"

إذ لا يكون السلوك ثقافياً إلا إذا كان متناقلاً، مُتداولاً من فرد إلى آخر عبر عملية التعلم أو المحاكاة واللغة.

أولاً : موقع الإنسان في الخطاب الفلسفي القديم والوسيط:

1- الميتافيزيقا اليونانية: تنظر الفلسفة اليونانية إلى الوجود فتقسمه إلى شطرين: وجود حقيقي أنطولوجيا وشريف أخلاقياً وهو الوجود المعقول ووجود مزيف أنطولوجيا وخسيس أخلاقياً وهو الوجود المادي والفرق بين هذا وذاك كالفرق بين العقول السماوية والآلهة من جهة وعالم العناصر الأربعة الطبيعية (الماء، التراب، النار والهواء) والنبات والحيوان من جهة أخرى فلكل جنس من الموجودات الطبيعية موضعه الطبيعي المتناسب مع طبيعته. إن الثنائية التي نلاحظها على مستوى الوجود تسترجعها الميتافيزيقا اليونانية على مستوى تصوّرها للإنسان فهو جسد ونفس والنفس جوهر مجرد أرقى من الجسد والنفس يتصل الإنسان بعالم الحقائق الأزلية بينما يكون الإنسان بالجسد مشدوداً إلى العالم المادي فالنفس من المنظور اليوناني إلهية من حيث المصدر وأبدية

من حيث المصير.

إن للنفس في المفهوم الأفلاطوني ثلاثة أقسام: النفس الناطقة أي العقل وهي ملكة المعرفة والإتصال بعالم المثل فضيلتها الحكمة ورذيلتها الجهل، النفس الغضبية ومكانها القلب وهي فضيلة الجنود لأنها مصدر الشجاعة أما رذيلتها فهي الجبن، النفس الشعوانية وهي ملكة الإندفاع نحو تحقيق حاجات الجسد فضيلتها العفة ورذيلتها الخسة. وتؤدي النفس الناطقة وظيفة حفظ التوازن بين مختلف ملكات النفس فيكون السلوك حكيماً عند خضوع الملكات الأخرى إلى النفس العاقلة ويكون عامياً عندما تهيمن الملكات الأخرى على النفس الناطقة فالنفس هي ما به يكون الإنسان إنساناً، وصفة الإنسانية ليست ذات مصدر طبيعي أو إجتماعي بل هي ذات مصدر ميتافيزيقي إذ أنها جوهر مفارق سابق على وجودنا في المجتمع والتاريخ وهي خالدة حتى بعد فناء الجسد.

يتميز التحديد الفلسفي اليوناني للإنسان بكونه ميتافيزيقياً وذلك بحسب معينين :

أ- النظر في الإنسان بإطلاق، الإنسان المجرد، وليس الإنسان المشخص الذي يعيش في بيئة إجتماعية وتاريخية معينة.

ب- النظر في الإنسان بوصفه ماهية ثابتة وليس النظر في الإنسان بحسب وضعه المتغير وصفاته المتبدلة

2- الفلسفة الإسلامية وفرضية الرجل الطائر:

أكد ابن سينا على ثنائية الطبيعة الإنسانية روح وجسد وأن ما به

يكون الإنسان إنسانا هو ذلك الجوهر الثابت المفارق: النفس. ويقدم ابن سينا للدلالة على حضور الجوهر الميتافيزيقي للإنسان فرضية الرجل الطائر: فلو جود الإنسان نفسه من كل ما يتصل به من المدركات الخارجية (الحواس) ورجع إلى ذاته فإنه يدرك بالحدس أنه ليس جسما ولا شيئا مرتبطا بالجسم، وإنما هو ذات روحانية تدرك نفسها بنفسها. إن الخاصية المشتركة لجميع هذه التصورات الفلسفية القديمة والوسيلة تتمثل في تحديد الطبيعة الإنسانية على أنها جوهر متعالٍ وثابت من جهة والنظر إلى الإنسان على أنه مركز الكون من جهة أخرى بحيث تدعمت هذه النظرة المركزية للإنسان بما أقرته التصورات العلمية الماقبل كوبرنيكية من أن الأرض مركز الكون.

وفي هذا الإطار إعتبرت المعتقدات الدينية الإنسان سيد المخلوقات متميزا عنها بطبيعته الإلهية من حيث هي روح خلقه الله على صورته وجعله خليفة له في الأرض وسخر له ما في الكون ليستثمره، فالأرض خلقت ليسكنها ويعمرها لذلك فهي أجمل الكواكب وأفضلها. هكذا إعتقد الإنسان طوال عهود مضت أن الأرض هي مركز الكون، ولما كان الإنسان أشرف الكائنات التي تسكنها فهو إذا مركز الكون.

فهل حافظت الإنسانية على مكانتها التشريعية داخل الكون أم أن العلم أجبر الإنسان على مراجعة معتقداته القديمة ؟

ثانيا: الثورة الكوبرنيكية وأثرها في مراجعة مكانة الإنسان في الكون: يقول فرويد: "وجه العلم عبر القرون تكذيبين خطيرين للأناية

الإنسانية الساذجة وقد حدث ذلك أولاً عندما أثبت أن الأرض أبعد من أن تكون مركزاً للكون وأنها لا تمثل إلا جزءاً تافهاً من النظام الكوني الذي يصعب علينا إدراك حدوده، أن هذا الإثبات الأول يرتبط في نظرنا بإسم كوبرنيك" (5)

أثبتت الثورة الكوبرنيكية في مستوى علمي فلكي أن الشمس مركز الكون وأن الأرض تدور حول نفسها وتدور حول الشمس فهي إذا في حالة حركة دائمة بينما يعتقد النظام الفلكي البطليموسي أن الأرض مركز الكون وأن الشمس تدور حول الأرض التي تكون في حالة من الثبات الدائم. لقد بينت الثورة الكوبرنيكية أن الأرض مجرد كوكب لا يكون أجمل الكواكب ولا أشرفها وإنما هي على الأقل من حيث الحجم أصغر حجماً من الشمس كما أطلق كوبرنيك الأرض من ثباتها ورمى بها في اللامتناهي وكأن الأرض كوكب تافه في النظام الكوني. إن الانتقال من مركزية الأرض إلى مركزية الشمس هو انتقال من كون متناه مغلق إلى كون لامتناه مفتوح. من كون أخلاقي إلى آخر غير مبال بتصورات الإنسان الأخلاقية ومشاعره الدينية.

من هنا كانت الكوبرنيكية ثورة على الموروثات الدينية والعلمية التي حنطت العقل في تابوت اللاهوت فلم يقدر الإنسان على تفسير الطبيعة واستقراء قوانينها بل إنه أغفل طوال عهود من إعادة النظر في موقعه الكسمولوجي. لهذه الاعتبارات تمثل أهمية الثورة الكوبرنيكية في تحرير الإنسان من السُّلط اللاهوتية ودفعه إلى مراجعة ذاته.

ثالثاً: المفهوم الميتافيزيقي للطبيعة البشرية في فلسفات الحداثة:

إنّ ظهور مفهوم الطبيعة البشرية في فلسفات الحداثة يعدّ إنجازاً ديكارتياً مكنّ من تحقيق وعي ذاتي للإنسان باستقلال تامّ عن الموجودات الطبيعيّة. وبهذا عمدت الديكارتية مثلاً إلى تأسيس فلسفة الذاتيّة التي فتحت أفقاً نظريّاً جديداً أصبح فيه للإنسان طبيعة مميّزة وواضحة، يعرف ديكارت (1596-1650) الطبيعة البشرية بكونها طبيعة عاقلة "أنا جوهر لا تتمثّل ماهيته ولا طبيعته إلّا في التفكير" فالإنسان بطبيعته كائن يفكر ويشترك كلّ البشر في امتلاك العقل يقول ديكارت "ما يسمّى على وجه التحديد الفطرة السليمة أو العقل يبدو متساوياً لدى جميع الناس"

إنّ ما به يكون الإنسان إنساناً هو العقل. وفي هذا الصّد يقول باسكال "الفكر صانع عظيمة الإنسان" وبه يمتاز عن الكائنات الأخرى رغم كونه قصبة، أضعف ما يوجد في الطبيعة لكنّه قصبة مفكّرة" إنّ الإنسان ليس عدماً في اللامتناهي ولا مجرد شيء في العالم بل هو ذات مفكّرة دالّة على حضوره في العالم. إنّ ماهو طبيعيّ فينا هو علامة على أنّنا مجرد أشياء في العالم في حين أنّ ما نضيفه إلى العالم بواسطة الفكر والفعل هو العلامة على كوننا ذوات في العالم يقول كانط: "على الإنسان أن يستعمل عقله الخاصّ فهو ليست له غريزة كالتي للحيوان فهو مطالب برسم ما يكون عليه سلوكه" إنّ مجال العقل عند كانط هو مجال الحرّيّة، أو بالعقل يضيف الإنسان معطيات أخرى تتجاوز الطبيعة

وأنّ مجال الغريزة هو مجال الضرورة الحيّاتيّة التي اقتضتها الطّبيعة لقد بقي كانط سجين المقولات الفلسفية الكلاسيكية حين نظر للإنسان ككائنات عقل وغريزة.

إذن تشترك فلسفات الحدائث في إثبات طبيعة بشرية لا تتغيّر عبر التاريخ، كلية لا تختلف بحسب المجتمعات ولعلّ مفهوم الذات العاقلة الديكارتية والذات المتعالية الكانطية تمثل التأسيس الفلسفي للذات البورجوازية بل فلسفات الذات في رأي التوسير (6) ما هي إلّا استعمال آخر في الحقل الفلسفي لمقولة الذات الايديولوجية. بهذا الاعتبار يحقّ لنا أن نلحق فلسفات الحدائث بالتصورات اليونانية والوسيط ونبحث عن فهم فلسفي تاريخي للإنسان يرسم حدود الفصل بين ما هو علمي وما هو ايديولوجي.

رابعاً: الثورة البيولوجية وتحطيم المفهوم الميتافيزيقي للإنسان:

يحتلّ علم الحياة بين العلوم مكاناً مركزياً لأنه حاول تحديد الطبيعة الإنسانية في حدود غير الحدود الميتافيزيقيّة فأحدث بذلك ثورة على المعتقدات الدّينية والتصورات الميتافيزيقيّة (7) بحيث "حطّمت الثورة البيولوجية ادّعاءات الإنسان في كونه يحتلّ مكاناً مرموقاً في نظام المخلوقات وذلك عندما أثبتت نسبته إلى مملكة الحيوان وكشفت عن ثبات طبيعته الحيوانية. وقد تحقّقت هذه الثورة اثر أبحاث داروين (1809/1882) فهل للإنسان طبيعة خاصّة تميّزه عن طبيعة الحيوان؟

1- التحديد البيولوجي للإنسان:

يتحدّث جان رويستان عن الإنسان من وجهة نظر علميّة أي من موقع يلتزم فيه بمعطيات العلم التي أكّدها جملة من الأبحاث في الكيمياء العضويّة والفيزيولوجيا وعلم التشريح المقارن.

الإنسان نتاج للطبيعة. بمعنى أنّه يخضع لنفس الضّرورات ويرتبط بنفس القوانين التي تحكم الطبيعة. ممّا أدّى إلى تحطيم فكرة الخلق الربّاني وتصنيف الإنسان ضمن المملكة الحيوانية والثورة على المفاهيم القديمة والوسيلة والحديثة للإنسان على أنّه ماهية ثابتة وجوهر مفارق لذا كان من الطّبيعيّ أن تواجه البيولوجيا عوائق وصعوبات لأنّها تشكّل خطراً على بعض التصرّوات الفلسفيّة والمعتقدات الدّينيّة.

2- الخصائص المشتركة بين الإنسان والحيوان:

- الإنسان حيوان خلوي (مرّكب من خلايا)
- الإنسان حيوان حبلّي (له جهاز عصبي)
- الإنسان حيوان فقاري (له عمود فقري)
- الإنسان حيوان ثديي (له أنداء)
- الإنسان حيوان أمهصي (له خمسة أصابع في اليد وخمسة في الرّجل)
- الإنسان كبقية الحيوانات ينمو : ويتحقّق هذا النموّ حسب سلسلة من المراحل المحدّدة الثّابتة المحكّمة في ترابطها، ويتغذّى : شرط ديمومة النموّ، ويتكاثر : التزوّج إلى التناسل حفظاً للتنوع.
- الإنسان يشبه القرود العليا في الهيئة العامّة والقامة وغياب الذّيل وتركيبية الإنسان.

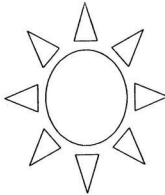
- كما يوجد بين الإنسان والقردة العليا تشابه فيما يتعلق بفصيلة الدّم فقد أمكن تجريبيًا نقل أو حقن كمية من دم الشمبانزي على إنسان لنفس فصيلة الدّم دون أن تحدث هذه العملية اختلالاً في الدورة الدّمويّة مما دعا الرأى الشائع إلى اعتبار التشابه في الدّم مرادفاً للقاربة لكن هذا الشّبه ليس له قيمة تجعلنا نعتقد في وجود تواصل بين النّوع الحيواني والنّوع الإنساني.

انتهت البيولوجيا إلى تزييل الإنسان المزرلة الحيوانيّة فهو خلوى مع الخلويّات وفقرى مع الفقرّيّات وثندي مع الثّديّيات فهل أنّ الإقرار بهذه التشابهات ينفي أهميّة الفوارق بين الحيوان والإنسان؟

يـمـع

ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhril.com>



نحو ترتيب جديد لأغراض الشعر الشعبي رياض المرزوقي

لم تؤسس بعد دراسة الشعر الشعبي على قواعد علمية منهجية، والسيرة أو الحكاية، وحتى المثل متقدمة في هذا المجال على الشعر. فنحن في الشعر، في أغلب الأحيان حيال دراسات رائدة، لكنّها أقرب إلى التعريف منها إلى التحليل أو التنظيم، وهو ما نلمسه في كتاب المرحوم محمد المرزوقي "الأدب الشعبي في تونس" (1967) أو كتاب محيي الدين خريّف "الشعر الشعبي في تونس" (1991)، ونلمس هذا حتى في دراسات الشبان الذين يتوفرون على زاد معرفيّ جامعيّ، مثل كتاب حسن مبارك "المختصر في الشعر الشعبي" (2001)، وكتاب العيدي بليغيث "الرحلة في الشعر الشعبي" (2003).

والحق أنّ الجهد المبذول في جمع المدوّنة الشفوية، وتحقيقها، ودراستها يبقى بعيداً عما يُرضي كمّاً، ومنهجاً. فما بالنا بالدراسات؟ وقد أشرنا إلى هذا عديد المرّات، وضمّمناه ورقة العمل المتعلقة بالثقافة الشعبية ضمن الاستشارة الوطنية.

وكأنّ الشعراء الشعبيين أنفسهم تفتّنوا إلى تعدّد الأغراض فأسرفوا في وضع مصطلحات لسنا ندرى مدى انطباقها على حقيقة النصوص، ولا حقيقة ترادفها الظاهري، من ذلك في الشعر الحكمي الأدب، والثوامر (وهما غرضان) ومحل الشاهد، والعكس (وهما أسلوبان في التناول)، وأضاف الدارسون شكوى الزمان وظلم الأصدقاء (وهما معنيان) والأمثال، والحكم (وهما جنسان أدبيان متأثران بالفصيح).

وحاول بعض الدارسين الشبان وضع مصطلحات جديدة كما فعل العيدي بليغيث حين اقترح "شعر الرحلة" لتعويض "شعر الطريق" عند المرزوقي، و"وصف

السراب" عند خريّف (1) والحال أنّ كلّ هذا من غرض "الضحضاح"، والدليل على ذلك أنه يفتح بلفظ "ضحضاح". وليس من المهم أن نخترع مصطلحات، بينما المصطلح التقليدي متداول، مفهوم.

أمّا الأوزان فحدّث ولا حرج، فحتّى ضبط عددها قد كان فيه الاختلاف فقال أحمد بن موسى

"أصل الغنا كان ستّه وستّه دليله نعتّه الربّ معبود والعلم شتى"

وقال أحمد ملاك

"أصل الغنا عشرين بمعانيه وزيد أربعة ثانية ماكانشي سوق الغنابارية"

وقال غيرهما :

"أصل المعاني كانوا اثناس يا فلان والذي يعاندي هم واحد وأربعين (2)

على أنّ تعدّد الأغراض (وقد عددنا منها خمسة عشر غرضاً على الأقلّ)

وتداخلها يجبرنا على الاكتفاء بنماذج منها في انتظار إكمال الدراسة.

كما أنّنا نقترح تقسيماً جديداً لهذه الأغراض ضمن ثلاث دوائر

1- الأغراض الذاتية الغنائية

2- الأغراض المتعلقة بالطبيعة

3- الأغراض المتعلقة بالمجموعة

ونلاحظ أخيراً أنّ الغرض ليس إلّا إطاراً عاماً يتصرّف ضمنه الشاعر بطريقته

الخاصّة، فليس القالب الغرضيّ قانوناً، أو لمحا إجبارياً لا يجيد عنه الشاعر.

وأهمّ ما يمكننا منه الغرض هو تيسير دراسة هذه النصوص بمجموعها ضمن ملفّات،

نكون بدوئها مجبرين على مقارنة النصوص بصورة مشتّتة، جزئية.

* من الأغراض الغنائية الذاتية:

الأخضر، وهو ما ينعت في الفصيح بالغزل، أو النسيب، أو التشبيب وفيه أنواع أولها وصف الحبيبة، وقد يكون عادةً لكامل الجسم من الشعر إلى القدمين كالقصيدة الشهيرة المنسوبة خطأً إلى الحاج عثمان الغري (3)
هَزَّ الغَطَا عَ الحَدَّ يا حَمُورِي واضحك نشوف أنيابك التوروري
وتشمل وصفاً تفصيلياً لأجزاء الجسم.

ومن هذا القبيل قصيدة محمد الصغير ساسي "حفلت بالدياج"، ومنها

"سوالفها مسايلُ ع الصدر مخايلُ
والقصة فم المشط مذبلها ثرياً فوق جبينها تشعلها
حواجبها تزيل تعريق جدوايل
الرمقة متفرغره بكحلها مثل النبله قليل من يحملها
الرافع زي وكيل يتغلغل تغليل

كلّ خصومه واعدّه يفصلها وإلا بُرني فتيلته عطلها..." (4)
وربما تغنى الشاعر ببعض الأجزاء كالعين، يقول أحمد الرغوثي
"غروضات ريت الغرض بين هذهم رعوبات رعبو خاطري برعبهم
غروضات في شَبُو نعيسات دوب يغازلو ويغَبُو
شواويطهم فوق الحدود يهَبُو جناويح خُرطيفه الهوا شقيلهم
مين شيعو وجهين في كَبُو كراطيش بوستّه رقيق جعبهم..." (5)

ومن فروع الأخضر التعبير عن لوعة الحب واشتداد الألم من الفراق وهو ما يسمى عادةً بالجرح، وقد عُرف جرح أحمد ملاك مثلاً
"أنا كيف نسايي مجروح يا قلّة طبيب يداوي
ناري كوابيه من فم سماوي طامع بدواي" (6)

لكن الشعر في هذا الغرض كثير كالتعبير عن الوداع، وله صلة بشعر النجعة الذي نراه بعد قليل يقول أحمد الرغوثي

"أحيه نار الفرقه سامورها تقوى في مكنوني لهو جمراتها قدو
وقت إن ريت مرادي مرحولها تحوى والحيران يوتو وأماقم ثغو
حتى يقول في تعبير بديع
عرضتني المسكينه دوباش ما تتغوى مخنوقه بالعيره ناساها حدو
قلت لها ظنيتك يا ولفتي عدوه ثمشي وتخليني لشفاية العدو
ثمشي بعدك بجلى ونعيش ذيب صوه ولا نشبح لاوهامك من بعد ماعلو
وتخاطبه معتذرة بأنها مكرهه على السفر وتفارقه
نلتفت نراها في مشيها تتحوى نلتفت بالدرقه لين جازت الكدو
خشوا بيها صحرا ضحضاحها مطوى ومهاميدها توحش وذباها عوو..." (7)
ومن هذه الفروع التي لم يشر إليها أحد من اللغويين الغزل بالصوت (الحسن)
كما نرى في قصيدة سالم بن عوف
"تره لاس حسن القطا جاي منا ضيايح برنه وإلا دلالات كف المحتى
تره لاس حسن القطا جاي وارد ضيايح ابارد وإلا دلالات رقة الشارد" (8)
ومن هذا القبيل القصيد المعروف
"خلخال بو رطلين فوق الحنه عل ركزته ميلين تسمع رنه"
"هدف يطلعح في ساق طفله بالرواق تجرح
وحزامها مجدول طايح يشطح على ركزته الخلخال منا ومنا
منا ومنا يردس نقمار بالصوت داوي
يحط المحط كيف تعفس ويطلع بطبع الرهاوي
خلالات قلبي مهلوس مدقوق دق الجنائي...
ترضى خالك ولد الرويسي جاب عل خلخالك
يالندرا يبدش بين أحضانك ويلندرا يلحقش ما يتمنى" (9)

على أن القصائد الغزلية، وإن اشتركت في المعاني عامة، متنوعة جدا في الأشكال ففيها مثلا الأليف وهي قصيدة جاءت قوافيها على الحروف كلها، وفيها الملزومة، والقسيم، والأبيات المتفرقة كقول الشاعر

"جثّ خارجه لُغَطو عليها ولّي بان خدّها ناض الامام يصلي" (10)

أو قول الآخر

"نَمّة ثلاثه يكرهو جيّاني ضو القمر، والكلب، والشيباني" (11)

*الأحرش أو الشنا، وهو ما يقابل المحاء في الفصحى، ويمكن أن تميّز فيه فرعين

1- شعر الخصام على غط النقائض

2- شعر السخرية الذي يهدف أساس إلى المداعبة أو الفكاهة

فمن الصنف الأوّل قول أحمد بن موسى في الألياش (اللتام)

"عليهم رميت المصيبات وجميع الأفات

تزعزعو بكلّ زعزات وغفارت الجنّات

عنكم نصبّ الفضايح

جمع السخط صبّ صبّات على روس الأزفات

أولاد الحمير سرايات والادهم خلط بالخلات

والأزرق جيوشه كسايح.." (12)

وقول عبد السلام الأسمر في بحر شهر

"إن قدر الله يابن مراد نركب جواد

ونجيك متين اشتھت العناد

إن قدر الله نركب نجيف ونلبس رهيف

ونجيك كي الواد عامل زفيف

ونقل بيدي حربه وسيف ونجيك باجتهاد

على الله ماعادشي نستفاد

إن قدر الله نركب عتيد ونليس جديد

ونجيك راسي بمجد

ونفرع جدتي عبد الحميد وجميع الاسياد

فرسان متحزّمه للجهاد" (13)

ومن ذلك قول محمد الطويل المرزوقي في هجاء خصمه الشاعر

"يا بن زكري هاب ترابي لاش تغاي؟

لا عضيت مسّم ناي

يا بن زكري ما تغناظ واصغ الألفاظ

نا شاعر وأنت حفاظ

مانقد حراي نباصي نكتب فيك جوابي..." (14)

أمّا هجاء السخر فنختار منه هذا الكوت (وصف الفرس) المقلوب، وفي آخره

"أخضر" مقلوب أيضا

يقول عمر الكافي <http://Archivebeta.Sakhril.com>

"الله لاكوت طربان باهي ومزيان البر يطويه طيان عليه نقيم الرحايل

مشري من عند طليان كاتب الفلسه وعريان كوت مشهور وحسان قعد من عقب الزوايل

لا علف لا تبن جيعان بلا شراب عطشان ينوس مسكين نوسان وتنحر فيه

القوايل

راسو كماراس ثعبان عينيه دوباتش ما تبان فوقهم ييجي صاع ذبان من الهم ربي

العلاليل حتى يقول

لاحق قدارم غزلان راسها قد علجان وغثيها لحد الأوزان وما أحسن عليها

سمائل إذا ربتها نرور لُحصان ما نحدّ كان جوف زغوان ونطلع قدا واد مليان

وباقى وأنا مستخايل (15)

* الرثاء

وهو غرض يقوم على عنصرين

- ذكر خصال الميت

- بيان الصلة به، وإظهار اللوعة..

وقد اخترنا قطعة للمرحوم محمد المرزوقي في رثاء الشيخ حمّيس الترنان يقول فيها معبراً عن حزنه الذاتي، وأجود الرثاء ما رثى فيه الشاعر نفسه

"ناري تلهب وسط ضولعي في قلبي مشهاب

ما بقى لي من أيام ولوعي كان صحرا وسراب

صاف عشي ونكس ريعي ووجه القمر غاب

لقيت روعي هائم مانوعي في ظلمه وضباب

فين خيامي فين نجومعي ضاعت في الاسهاب

مكتني حيره يا روعي هبط دمعي سحاب

ديواني ملئتو بدموعي نرني في الاجباب

وجوه ال تعرف وقت طلوعي مشت شايب وشباب

كل يوم على قبر نعدّد في مآثر الإخوان

كتي لا ننظم لا ننشد إلّا في الأحزان" (16)

الأغراض المتصلة بالطبيعة

وهي عامّة وصف الرحيل والصحراء، ففي الرحيل نجد النجعة أي انتقال القبيلة في طلب الكلا، ووصف الطريق المقطوعة، وخاصة الصحراء المهلكة وهو ما يسمّى بالضحضاح، والاستبشار بترول المطر وهو ما يسمّى بالبرق. وبالطبع وصف الفرس والجمل وهو ما يسمّى بالكوت والمهري.

على أنّ صلة هذه الأغراض بالأخضر أو الغزل واضحة ففي الغالب يكون الانتقال بسبب الحبيبة حيث يسعى أهلها لإبعادها، ويشقى الشاعرُ في اللحاق بها.

فمن الضحضاح والكوت قول البرغوثي

ضحضاح ما يقطعه كان ناوي سريع الخطاوي يقوى على الضيم يصير يلاوي
مطبوع ولد الفحول صرواي دخلي معاوي منقط كما الفهد أزرق سماوي
يشبه من الريم مقنوط خاوي عريض الصهاوي عظمه على المخ مققول راوي
يعزم من الفجر فوق النداي على القوت طاوي غرقه على الدبر صوب رغاوي
مولاه صنديد ماهوش حاوي يوم البلاوي يشق الخنق ينقطع في الصواوي

(17)

ومن الضحضاح والمهري قول محمد الطويل المرزوقي

ضحضاح مشناه ييسال يعراض يطوال
غيمه حتر بان زنكال في الشيخ عامل ظلاله
مبثوث من كل شغال وعايا ورمال
وديان وخنق وجبال تحليه موحش جباله
لا يعمره سرح لا أبال لا تجمع رخال
بساط شين ما بين لعمال لا ثم منهو مشى له
حتى العرب فيه محال حارم ويطال
بر تسكنه كان لغوال اسم الإنس ما يكون لاله
جند القطا فيه حوال طائر وقيال
التين والصيد صهال من البعد تسمع صهاله
كان وحش ونعام وغزال وسموم وأهوال
والذيب والضبع ينجال مطمان واثق ظلاله

تمتت كان زوزال يُحمار يحمال
معلق على المهر شتقال عما الي زايد انفاله
لا وقف في سوق دلال لا تباع بالمال
اختاروه ما مماثله جمال من غات جاه الهداله
مشهور في الجري زغال يشحب ويرحال
محبوب قدام طبال ادروش ولوح هباله (18)

ونتنته هذه المناسبة لتحقيق معنى "الضحضاح"، ولقد عرفه المرزوقي بـ "المفازة البعيدة المقفرة المخيفة" (19)، وأضاف خريف أن شعر الضحضاح هو "وصف السراب"، وهو معنى مستمد من الفصحى حيث يقال ضحضح السراب بمعنى تفرق (20). وتقول المعاجم العربية أيضا إن الماء الضحضاح هو قليل العمق (21) والثابت على كل حال أن المعنى المقصود في الشعر الشعبي هو المفازة التي لا يقدر الإنسان على الإقامة بها.

ومن شعر الكوت أيضا قول أحمد ملاك، وفيه وصف تفصيلي للفرس، وجهازه، وللفارس أيضا

"على كوت مكتوب مثيل مساس عند الرجاحيل
بحرود أزرق كما النيل عابر عيونه شعاعيل
من صغرت في التقاديل راتع فضيخ المقاصيل
في القمح يعلف بلا كيل شارب حليب الشوايل
لاوردش حوض السبايل إن كان في منعق السيل
كي الصيد بين الجراويل يشق الجبل والنحائل
الدير ذهب التشاعيل رطلين وأربع مثاقيل
ولجام زين التسلسيل نجمة معاها هلاليل
السرغ من ذهب وكتليل عبار خمر التفاصيل

ركابات مثل القناديل	صنعات بر الجهايل
مولاه لابس فراميل	معاهم سروايل
برانس وهمه وتحفيل	لا خاصاته مسايل (22)

— الأغراض المتصلة بالمجموعة

هي الأغراض الموضوعية في خدمة المجموعة التي ينتمي إليها الشاعر ومنها
 "الأدب" أو "اليدب"، وهو شعر الحكمة أو النصائح التي يتوجه به الناظم قصد
 الإصلاح، وقد سماها خريف الثوامر وهو المصطلح الذي استعمله ملاك "خوذو
 الثوامر واتركو المخبوبة" (23). ومن أليف الأدب يقول ملاك

"أش كلّفك بالنسنان على شي ليس تطليقه؟
 باب الأدب ليه كهّان يحبّوه أهل الحقيقه

واللي حواله كتن باطل يطبّ الحريقه
 أليف أوّل بدايه باسم الإله بدينا
<http://Archivebeta.saknint.com>

ياسامعين الحكاية زيدو الصلا عن نبينا
 نرجع نردّ الوصايه تجلّي النكد والغيبه
 العلم بحر الوقايه والنحو هو السفينه
 واللي عخطاته القرايه راكب فلوكه غريقه " حتىّ يقول

"لام الأليف لا يمت الأقوال ورجعت بالأمر لله
 الطالب حمد جاب الأمثال ورجعت رتب الحلّه
 عندي المعاني والأقوال بعض الأدب موش كلّه
 العطر يبيعهو بمثقال والما تبيعه بقلّه
 إن شا الله يوم الأهوال نختشر مع أهل الحقيقه" (24)

وربّما ورد الأدب في غير قالب الأليف كقول ملاك

"آه فرخ بنادم مبني على الخلل لا تديره صاحب لا تعمله عشير
 آه فرخ بنادم إذا ثمنه غتل تصحبه يرجعلك بالنكر والنكير
 آه فرخ بنادم لو تطعمه العسل يندمك عل فعلك يسقيك كاس جر
 آه فرخ بنادم لو تطلعه جبل يخلتك ويدرك في وسط قاع بر
 آه فرخ بنادم ما فيهشي فض لاعني وكواني في القلب والضمير
 آه فرخ بنادم لو تلبسه ككل م الذهب والفضة والملف والحرير
 يسليك يتملك بجوايحك الكل يلو يصيب يلفك في جرد من حصير" (25)

ويعتبر هذا الشعر صدى لمجتمع متمزق، كثير المفارقات، نائي الطبقات، وافر الاستغلال والكبت. وهو ما يبدو في شعر * العكس المبني على انقلاب الواقع، وظهور الأحداث غير المنطقية، وقد تميز البرغوثي في هذا الغرض "الداب (الحمار) كاتب حجه منه الضبوعه هاربه تتلجى والكبش ربه شد ذب وقتحه وجايب أولاده مكتفين غصايب البدعه الكبيره الفار رامي سرحه وراكب على قطوس شارف شايب... الصيد ماله ذكرى جلا فذ جلاه البقر عن وكره ولد الحبارى عاد يسري بكره يصطاد في ولد الغزال جلايب تكوفحت كوفحتي العوج والفهره وهرمت من عكس الزمان الخايب" (26)

* شعر الخطاري أو الملطم وهو شعر الوقائع الحربية ونكتفي بنموذج شهير هو وصف واقعة الجلبانية (12 أبريل 1920) وقد نسبته المرزوقي إلى علي الورثة الحمروني

"فرعو خمسة برباعيهم تا يجيو الفلاقه
 مخزن مطماطه يتحيمهم لثرهم بنداقه
 الكيلاني يتحلف فيهم بخلاله وطلاقه
 الاله الفلاقه نمحيهم في واسع رقرقه

ضربو الخمسة وجبوا يديهم زفو زفّ تلاقي
 كذب الوسعة يقصر بيهم زي هدير الناقه
 تاو إن يتلاقو يقضيههم يو سربه شلهاقه
 زي الذيب بمزل فيهم ويلالي ويهاجي
 كان التلّ يختر بيهم وجواب البسطاجي
 جو حمسه يقصو في الجرّه وملك الموت معاهم
 راميهم شيطان بشرّه عل تزيغ دماهم
 فرحو يحسابوها غره يتباشرو بملقاهم
 وقت إن شبح العين تعرّى تكو الخيل قدامهم
 والدغاجي في ايده حرّه يسريلهم في عشايم
 سرجاها وخرجت عل برّه في الملهاد خذاهم

ذوقهم كيسان المرّه موش من القهواجي
 الخمسة درجهم في مرّه لا من روح ناجي" (27)

إنّ النفس الملحمي واضح في هذه القصيدة، وفي الخطاري بعامة، وصورة
 البطل الفرد مضخمّة تضخيما فنيا بعيد عن الحقيقة، فالدغاجي مثلا يوصف في
 صورة ملاك الموت

"في يده ستوني بلدغ سته دار فيهم شاماطه
 صبيهه والقرّاص يلمّه يعجل ما يتباطى
 واللي ينوشه يا ويل أمّه فاح قنار شياطه
 يجي مرمي مصبوغ بدمه سمّ منحس لاطه.." (28)

وهو حسب المعروف في التاريخ لم يشارك في المعركة إلّا جزئيا فقد كان
 جرحيا، ولم يقتل على كلّ حال الخمسة جميعا. وتتضخّم المعركة وأصدائها

وكأنها حرب، بينما لم يتجاوز عدد المشاركين من الفلاحة الأربعة، وعدد الصبايحية العشرة، أردني نصفهم (29)

الخاتمة :

وهكذا نلاحظ أنّ أغراض الشعر الشعبي متعدّدة تناولنا بعضها على وجه الانتخاب والنمذجة، ونَحْنُنا بعضها كالمكفّر، أو الرباط، معتبرين أنّ الوقت قد حان لضبط هذه الأغراض، ومكونات الشعر الشعبي ضبطاً منهجياً، علمياً، وهو ما نحاول القيام به إن أسعفنا الزمان وفاء لشخص أخذنا عنه الكثير، وما زلنا. ويكفي أنّه جعلنا نشغل بهذا الشعر، بل وننظم فيه، والحال أنّنا لم نطلّع عليه، ولا حدّقنا لغته، ولا رأينا مواطنه إلّا بعد أن تجاوزنا الثلاثين من العمر. رحم الله ذاك الذي لم يمّت.

المواشم :

- (1) الرحلة في الشعر الشعبي ص 13
- (2) الشاهد الأول والثالث من الأدب الشعبي في تونس ص 112 أنا الثاني فقي، محمد المرزوقي، أحمد ملاّك شاعر الحكمة والملحمة، تونس 1980، ص 139
- (3) أثبت المرحوم محمد المرزوقي أنّه لشاعر لبّي يدعى "شمولة" (المعهد الرشدي، تونس 81، ص 96)

وقد أثبت اسم الشاعر في المقطع الأخير المضنّ بسجل الرشدية

"نشنتها بركابي أنا الذي تربت عنها حواي

أنا الشاعر المعروف ماني غاي اسمي شمولة نسبي فيتوري"

- (4) عي الدين عريف، مختارات من الشعر الشعبي، تونس، دت (1986)، ص 9

- (5) الأدب الشعبي في تونس، ص 126-127

- (6) أحمد ملاّك شاعر الحكمة والملحمة، ص 119

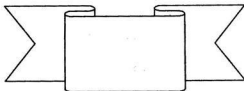
- (7) الأدب الشعبي في تونس ص 131-132

- (8) بلقاسم بن عبد اللطيف، كنوز من الشعر الشعبي، تونس 2000، ص 62

- (9) مخطوط في أوراق محمد المرزوقي

- (10) المختصر في الشعر الشعبي، ص 158

- (11) الأدب الشعبي في تونس، ص 71
- (12) مختارات من الشعر الشعبي التونسي، ص 275
- (13) فتحي زغندة، الطريقة السلاوية في تونس أشعارها وألحانها، تونس 1991، ص 135-136
- (14) مختارات من الشعر الشعبي التونسي، ص 284
- (15) الأدب الشعبي في تونس، ص 199-201
- (16) مخطوط
- (17) الأدب الشعبي في تونس، ص 144-145
- (18) مختارات من الشعر الشعبي التونسي، ص 39-40
- (19) الأدب الشعبي في تونس، ص 142
- (20) الشعر الشعبي التونسي، ص 160
- (21) في مستطرف الإشبيلي، ط2، القاهرة 1953، 140/2 "طير يوجد بالضحاح.."
- (22) مختارات من الشعر التونسي، ص 87
- (23) أحمد ملاك شاعر الحكمة والملحمة، ص 88
- (24) المصدر نفسه، ص 13، 17
- (25) نفسه، ص 105
- (26) الأدب الشعبي في تونس، ص 163، 165
- (27) المصدر نفسه، ص 151، 153
- (28) الأدب الشعبي في تونس، ص 152
- (29) محمد المرزوقي، الدغباحي، تونس 1968، ص 69-75



مظاهر "الموشح إلى القصيد من حيث إجراء اللغات فيه وفي مستوى المصطلح النقدي"

(2)

بقلم : فتحي أولاد بوهدة

1/ القسم الفصيح :

* التزيم : حدّده اصطلاحاً الأستاذ سليم ريدان قائلاً: "هو اللحن في الفصحى وامتزاجها بالعامية أو الأعجمية فيما سوى الخرجة من الموشح" ومبدئياً يبدو هذا الفعل من الوشاح خروجاً عن القصيد لا إلحاقاً له به إلا أن بعض الباحثين أولوا ذلك انطلاقة من مبدأ نظري ورأوا فيه إلحاقاً للموشح بالقصيد، يقول عبد الإله ميسوم في معض المقارنة: "وإذا كان الموشح كالشعر التقليدي في لغة عربية فصيحة فالخرجة تكون باللغة العامية غالباً (ميسوم م س م) وهذا التشبيه إلحاق جزئي للموشح بالقصيد لأنه لا يقدّر الموشح باعتباره خطاباً منسجماً بقسمه الفصيح وقسمه العامي وإنما ينظر إليه في مستوى جزئه الذي يجعله شبيهاً بالقصيدة ملحفاً به وكأنّ الوشاح وهو ينشئ موشحته وفق موقفين شعورين موقف فكر فيه بإلحاق الموشح بالقصيدة فكتب القسم الفصيح وموقف فكر فيه بالخروج عن القصيدة فكتب المركز أو الخرجة والحق أن ظاهرة تعدد اللغات في الموشح كانت مجالاً ارتكز عليه بعض الباحثين ليستدلوا على أنه تعدد لغوي ليس غريباً عن الشعر العمودي خاصة في القرنين الثاني والثالث للهجرة عندما كان أبو نواس وبنشار وغيرهم من الشعراء ذوو الأصل الفارسي لا يرون بأساً بأن يسقطوا في شعرهم بعض المفردات من تلك اللغات غير العربية،

يقول سيّد غازي : "إنّ الواشحين ومنهم الوشاح الأوّل رأوا أن يدخلوا على طائفة من موشحاتهم فحجينا عليّا [...] وكأنا أوحى إليهم بذلك أبو نواس وغيرهم من الشعراء العباسيين بإدخال الألفاظ الفارسيّة في أشعارهم (سيّد غازي ص-26) ويخلص الباحث في هذه الملاحظة إلى استنتاج مفاده "أنّ الموشحات الأندلسيّة انبثقت من المسمطات العربيّة الوافدة من الشرق" (سيّد غازي ص 27) والواضح أنّ هذا المبدأ في ردّ الموشح إلى القصيدة يحتاج إلى غير قليل من النقاش ذلك أنّنا نتساءل عن طبيعة هذه الظاهرة المتمثلة في رحلة بعض الكلمات من لغة إلى لغة، فهل هي ظاهرة خاصّة بالموشح؟ يبدو الأمر عكس ذلك تماماً ذلك أنّ القرآن نفسه كان قد استوعب كثيراً جدّاً من المفردات الرومانيّة والفارسيّة ولم يقل مفسّر من مفسري القرآن إنّ أصل لغته يعود إلى تلك الشعوب فأبو نواس وأضرابه من الشعراء إذن أسقطوا في شعرهم بعض تلك المفردات "الزنيمة" لأنهم وجدوا أنّ العربيّة تستسيغها وأنّها من وجد آخر تدعّم الطاقة الشعريّة لنصوصهم الإبداعية ثمّ إنّ هذه الظاهرة معزولة بمعنى أنّها لا تقف في أصل الموقف الإبداعي للشاعر، فهدفه لم يكن صادراً عن اختراع فنّ جديد قائم على تنويع اللّغات وإنّما كان صادراً عن مزيد تجويد القصيدة لأنّنا إذا ذهبنا معاكسا فقلنا إنّ التنويع كان مقصوداً لمذهب فني بعينه، فلماذا لم ينشئ أبو نواس ومعاصروه موشحات أكبر الظنّ عندنا أنّهم لم يفكروا في ذلك أصلاً.

القسم الثاني :

الخرجة أو المركز : منح ابن سنا الملك الخرجة قيمة كبرى فقال: "والخرجة هي إبراز الموشح وملحه وسكره ومسكه وعنتره، وهي العاقبة وينبغي أن تكون حميدة، والخاتمة بل السابقة وإن كانت الأخيرة، وقولي السابقة لأنّها

التي ينبغي أن يسبق إليها الخاطر ويعملها من ينظم الموشح في الأوّل وقبل أن يتقيّد بوزن أو قافية" (ابن سنا الملك- دار الطراز ص 43) ويتحدّد كلام ابن سنا الملك في أوضاع الخرجة في الاحتمالات التالية:

1- أن تكون عاميّة حادّة طريفة فإذا كانت معربة خرج الموشح من أن يكون موشحاً

2- أن تكون معربة إذا كان الموشح في المدح وذكر في الخرجة اسم المدوح.

3- أن تكون معربة وإن لم يكن الموشح في المدح على شرط أن تكون هزاة سحرّة

4- أن تكون عجميّة وهنا أيضاً يجب أن يكون لفظها سفسافاً لا ذعاً.

ويعني في مبشّنا من هذه الاحتمالات، الإحتمالان الثاني والثالث لأنهما هما اللذان ينتظمان الخرجة الفصيحة ثمّ يجعلها تلحق الموشح بالقصيد.

الخرجة والمدح : من أمثلتها قول ابن اللبّانة بمدح بني عبّاد.

لك الفضل وإنك من آله

رأى الكلّ بكم نيل آماله

فما يخلو من ينشد في حاله. (عن عبّاس ص- 190)

ويعلّل صاحب دار الطراز هذه الخرجة بقوله فإن كانت الخرجة معربة الألفاظ منسوجة على منوال ما تقدّمها من الأبيات والأقوال خرج الموشح من أن يكون موشحاً اللهمّ إلّا إذا كان موشح مدح وذكر المدوح في الخرجة فإنّه يحسن أن تكون الخرجة معربة (دار الطراز ص 40 و41) والواضح من هذا التحليل أنّ ابن سنا الملك يعتمد في تفسير إلحاق الموشح بالقصيد من هذه الناحية بجعل الخرجة معربة فصيحة وعلّل ذلك بموضوع

الموشح ووروده مدحا وهو تحليل غامض وزاد من غموضه أن ابن سنا الملك يستعمل له فعلا نقديا أنطباعيا هو (يحسن) فلماذا تحسن الفصحى في خرجة الموشح المدحي ولا تحسن في غيره من الموشحات ولعل هذا الإحساس هو نفسه الذي دفع إحسان عباس إلى محاولة تحليل إلحاق لغة الموشح المدحي بلغة القصيد فقال "فالموشحة التي فقال في المدح تقتضي في الغالب خرجة تناسب وحال المدح فإذا كان الجذ أغلب على العلاقة بين المدح ومادحه لم يستطع أن يتطرق باستعمال خرجة عامية أو عجمية، وإذا كان المدح ممن رفعت الكلفة بينه وبين الوشاح فلا بأس من أن تكون الخرجة عجمية أو عامية" (عباس ص-189) وواضح أن عباس يعتبر مبدأ (الوقار) هو المبدأ الذي يفسر إلحاق الموشح بالقصيد في مستوى الخرجة الفصيحة فالموشح يلتزم الفصحى نزولا عند هيئة المجلس تماما كما التزم بذلك مقصد القصيد وهو يقول الشعر ملتزما بهيئة المدح وأحوال المقام فخلفية ردّ الموشح إلى القصيد تقبع وإن مسترة في خلفية هذه الأحكام ذلك أن إحسان عباس ينطلق من طقوس إلقاء القصيد المدحي فيطردها دون التفات منه ولا شعور على قول الموشح.

الخرجة والغزل : قلنا إن الحالة الثانية التي يلحق فيها الموشح بالقصيد من حيث خرجته الفصيحة هو بعض حالات الغزل وهي حالات اعتبرها صاحب دار الطراز نادرة إذ لم يشر منها إلا لآلى ثلاث خرجات على الأكثر نحو قول ابن بقي:

"ليل طويل وما معين يا قلب بعض الناس أما تلين؟"

وهو يضع لهذه الخرجة شروطا فيقول "ينبغي أن تكون ألفاظها غزلة جدّا، هزاة سحارة خلابة بينها وبين الصباية قرابة وهذا معجز معوّز" (دار الطراز

وما يمكن أن نلاحظه في شأن إلحاق الموشح بالقصيد من هذه الناحية أنه إلحاق نادر استثنائي لأنه مشروط بظروف صعبة لا يمكن أن يتوفّر عليها إلا شدة الوشاحين، لكن الذي لا يفسّره صاحب (دار الطراز) غير مكين بدليل أن كثيرا من الشعراء الكبار كانوا وشّاحين ولا يعتقد أن موهبتهم الشعرية ستعقد بهم عن التوشيح بخرجة فصيحة. ويمكن أن نذكر أيضا مذهب إحسان عباس في تحليل هذا الإلحاق، وهو نفس المذهب الذي فسّر به مسألة إلحاق الموشح بالقصيدة في مستوى الخرجة المدحية، وهو مذهب التناسب الذي يقول فيه: "وإذا جرت الموشحة على الغزل المتسامي صحّ أن تكون الخرجة معربة، بل كان ذلك أليق بها" (عبّاس ص- 189). وقانون التناسب الذي يشير إليه عبّاس قد يكون صحيحا ولكن المشكل في هذه الندرة التي يشير إليها (صاحب دار الطراز)، والتي تتعلّق بالخرجات الغزلية الفصيحة، فهل معنى ذلك أن (علاقة الوقار والحبّة) لم تجمع بين الوشاحين إلا مرتين أو ثلاثة فحسب طيلة تاريخ التوشيح، وإذا كان ذلك فلماذا الوقوف عنده وهو شاذّ عارض لا يمكن أن ينقص القانون العام المتمثّل في أن الخرجة الغزلية في أصلها عامية، إنّ العناية بهذه الظواهر العارضة يفسّر بأمرين أولها أن عقيدة صاحب (دار الطراز) ومن ذهب مذهبه محكومة بعقيدة قائمة على ثقافة الكتابة وهي عقيدة لا تقبل غير النصحي ولكن ذلك يفوت على هؤلاء الدارسين إمكانية النظر إلى الموشح أنه كتب استحابة إلى لحن فهو مشروع غناء قبل أن يكون مشروع قراءة، وثاني الأمرين هو القياس على مثال سابق هو القصيد وهو سعي يشي بعدم القدرة على تمثّل الموشح فنّا مبتدعا وكبانا أصيلا (الأستاذ ريدان-المقدّمة).

الختامة :

انطلاقاً مما تقدّم من تحليل يمكن الخلوّص على أن محاولة تأصيل الموشح في سلسلة الثقافة الأدبية والفنية العربية خضع إلى تنازع شديد بينه وبين القصيد وما هذا التنازع إلا بسبب مواقف فكرية ثانوية في رؤى عديد النقاد لم يمكنهم أن يتخلّصوا من سلطتها واعين أحياناً أو دون التفات منهم أحياناً أخرى وقد قادهم ذلك على أن يتهجوا نهج المقارنة والقيس على مثال سابق فإذا الموشح قصيد ولكن ليس كالقصيد ونحن وإن حللنا ذلك في نطاق مخصوص لا يتجاوز المصطلح واللغة فإن مجال الرد في الحقيقة يتسع إلى سائر القضايا الفنية والثقافية المتعلقة بالموشح، على أن من الدارسين من بدأ يتخذ طريقاً جديداً يستبين شيئاً فشيئاً ويضع الموشح في مسار وإن قام في بعض جوانبه على المقارنة فإنها مقارنة لا تستهدف ردّ فرع إلى أصل وإنما تدعو إلى تأكيد "أنّ الموشح فنّ رفيع يصدر عن قيم فنية تتخطى كلّ انتماء" (الأستاذ زيدان ص 42).

تخطيط المسألة :

1- المقدمة

2- المدونة :

3- في دراسة المصطلح

الوزن

المطلع

البيت

الشطر

الغاية

السمط

4- في لغة الموشح

الترسيم

الخرجة

الخرجة والمدح

الخرجة والغزل

5- الخاتمة

المدونة النقدية :

1- في أصول التوشيح لسيد غازي ط 1 1976

2- دار الطراز لابن سنا الملك

3- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسّام الأندلسي تحقيق إحسان عبّاس (الدار العربية للكتاب ط 1 - 1981)

4- الغائب والشاهد في الموشحات الأندلسية للدكتور سليم زيدان
(شركة أوريس للطباعة والنشر - ط 1 - أوت 2000)

5- الأدب العربي في الأندلس لعبد العزيز عتيق
(دار النهضة العربية ط 1 - 1976)

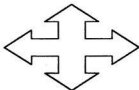
6- تأثر الموشحات في الترويض دور عبد الإله ميسوم
<http://Archivebeta.Sakhrat.com>

(الشركة الوطنية للنشر والتوزيع - الجزائر - ط 1 - 1981)

7- تاريخ الأدب الأندلسي : عصر الطوائف والمرابطين لإحسان عبّاس (دار الشروق للنشر والتوزيع ط 1 - 1997)

8- تاريخ آداب العرب لمصطفى صادق الرافعي

(دار الكتاب العربي بيروت - ط 1 - 1974)



القسم

شعر : الهادي عبد الملك

أقسمت بالساء العزيز بليله

بعناقه العذري للصفاف

بالما يسري من عيونهم دافقا

مثلا مثل الآلى صاف

بروي التراب كرامة وأصاله

ويجاوز البشرى في الأوصاف

بجبال يرقو الشاعحات على الذرى

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

بتسيمه العذب العليل الشافي

عخصاته الحلوات في أنهى الحلى

مرتفعات فوق عرش عناف

أقسمت بالزبدون، بالورد الذي

من وحي عطرها كمر سكبت قوافي

أقسمت بالأطلال وهي تعيدني

عبر الزمان إلى حمى الأسلاف

في "مكتسب" أكاد أسمع صوته

وأكاد ألمس خفة الأطياف

وأكاد ألمح حنبل "بزامة"

والجيش يرفعه على الأكتاف

وأكاد أبصر بالخيال سيوفهم

تجلي الظلام غلدها الشفاف

أقسمت أن أبقي لنونس عاشقا

مهما فابت أعود كالخفاف

لا صوغ عشا في سقيفة منزل

أو بهو مدرسة، إن كن خاف

ما همني ضيق المكان وموطني

مرحب كصدي شاسع الأطراف

يا حلوة العينين يا عويتي

من نسل أهل العز وابن ضياف

آمنت أنني مرغم ظلمك سابع

نهري المحبة والوفاء ضيافي

فمن المراعي هل فيض مشاعري

والصدق بولد من لظى الأرباب

كل فاحلة

جال خضير الجنابي

كل فاحلة...

تسهيبي.. أن قمرس أنياها...

في مسامات جلدي...

إلا أنت..

لمهكك صوتي..

بل.. مرقت فوق جنتي..

وغيبت بطولتي..

*** **

كل فاحلة..

يصنعها الوقت..

تصنعني...

لا تفي جسرا لماضيها..

*** **

كل فاحلة...

عندما قرص.. حروف اسمي...

فوق شفتيها ..

تلعنني ...

*** **

كل واحدة ..

عندما ما تريد .. خطير أثارتي

خطمك فوق رأسي ...

كان الله .. لم علق غيري ..

أنا لعنة السماء ...

ولعنة الأرض ..

كان المصائب مني ..

<http://Archivebeta.Sakhr.it.com>

مني ...

أنا الذي زرعت الخير ..

لاحصل شري ..

كل واحدة ..

يصنعها الوقت ..

بشرشرة الطرقات ..

وبكا. النادي آخر الليل ..

تصبح ضلني ..

*** **

لا أنمري.. يا صديقتي..

من منا الجاني.. وعن الضحية...

ضاع الفسيفساء..

ضاعت القضية..

يا آخر عصور الجاهلية..

*** **

دمعتي وسادة أسقطها الله من أعلى نقطة...

للمعلم بيتا يا أمات..

وضحكات بهرش ذراعيه.. لجسدي المفقود...

ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakart.com>

فاحذري

احذري..

أن تبتلي الشيعي فيا..

كل فاحلة..

تشهي أن تشرب دمعتي الأزلية..

*** **

عطر المساءات

شعر : مريم كافية

جرّح أنا

أبسر للصباحات

أرفع إلى السماء يدي

أنصب صامتا، خاشعا

والسما من فوقي

تبارك حمدي

جرّح أنا

ARCHIVE

<http://Archiu.net/Archiu.net>

أترين بالعذابات

أهدني من مراآتي جمال وجدا ممزقا بالينة وبالضياح

وأصلي كي لا يلعبك جرحي

فليك يا سيد عشقي

ويا مالك قلبي

قطفني من جحيم العمر الآتي وتوسلني حلما

حتى إذا ما تساقطت أشيائي من حولي

أهرب من خطامي

وأزرعني أمل في غر عشقك أ

في غر عشقك

في المقبرة

شعر : مختار المومني

عند المقبرة

خلفت والدي

تلحضر الأرض

يدفن الحقد

وبعيدا... بعيدا هناك

كلب أسود تجري.. تجري

بين فكيدناي

آه.. ضيعت عمري

في المقبرة

عند المقبرة

والدي.. أمي.. أخي أختي

يدفنون الحقد

يزرعون الحب

لكن أوان البذر فات

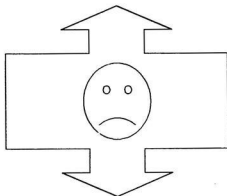
أختي ماتت في الحرب

أخي صار تحت اللحد

والكلب الأسود... بجري... بجري

ARCHIVE الكلب ابنلع الناي

<http://Archivebeta.Sakhril.com>



عطر آخر الحزن العربي

شعر : صالح الطرابلسي

الإهداء : إلى بدر شاكر السياب

مطر ...

والليل دمع،

هذا المدي في ...

كف الدجى،

يسكب نخينا

فيتهمس !

مطر ...

والفنى شجن،

على وجنات الثرى ...

يسيل،

فيطوي الطريق

تحت أقدام الدهول



ويتلثش .

مطر ...

والتي وعدت بالقدوم

لمرجئي بعد،

والمريدون قد أضاعوا

بوصلة الدليل، وثأهوا ! ...

والحات تشعبت :

لا شفع ولا ...

وتر .



<http://Archivebeta.Sakhril.com>

*** **

مطر ...

والجسد المعلن تجمر هواها ...

قد ظل حروب

مشينه ! ...

فقد مكايح تحكمه،

تري هل ضيع أحكامه،

تَبْنِك القَدْس ؟ !

مطر ...

والزّوج لا رَيح ! ...

جفت تَبَارِعُهَا ،

لقد ظمعت إلى نَار

جذوتها ! ...

واعطشاه !

فدفع المِياه سَراب ...

لا حَكم الهوى ،

أجلى ولا عبر !

مطر ...

والفضاءات فيض

من فيضانات السّوال ،

والمبطلون

قد سحقهم النّيار ،

غرق السائل والمسؤول ،

والجواب ...

طمس الجواب !

مطر ...

والوقت مزرعة للهرأ ! ...

هلا تبقى لنا من العمر،

ما يمكن من تأنيث

هذا الخراب جملاً ؟ ...



ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

أمر هو العمر.

أغلبه مضى

وبالباقي ...

ما الباقي ترى ؟ ! ...

مطر ...

هو ذا الخطاف يعد

أمنعه للرحيل،

حلت سنون البرد ! ...

والخطاب الجزأمر

الجزائر،،،

جاء يغتال الأرض ...

يلذبح هذي الأشجار !

كانت واقفة،

هذي الأشجار ...

واقفة تنحني الإعصار

تلو الإعصار ! ...

تسقي أجواء الأفق،

من خرها مدراس ! ...

فبأي شرائعك، تقصنها

يا هذا الجزائر ؟!

مطر ...

وأجنحة ...

للسحاب الملهم كاذبة،

تغطي

أسارى النهار !

.....

كانت الأرض جبلية،،

وجحافل الوحش،

قد قذمت : تقودها سدننها ...

وكانها ...

بين جنسها ، يفوح ...

يفوح برائحة ...

جيفة ...



وركام من دمار!

مطر ...

يا ابن السيل،

أين السيل ؟ هل ضاع ؟! ...

ما هذا الخط، إذن ؟؟

.....

ضاع الهوى ...

والعاشقون قد شردوا

في شعاب مناهة ...
المناهة أضاعت مخارجها ...
أين المفسر؟!
بين آهين:
"الرؤيا انقطعت"

يا دينها،،،

يا أنها الصريح العرين:

ليلي قد اغناها الوحش،

والأرض ...

الأرض قد اخلت توازها،

فنهزت،

ما عاد للحب معدنه

الشمين!



كلّما أراك ...

شعر : توفيق العرقوبي

كلّما أراك تنعطل لنته الشمس

ويتمتج الشرق بالغرب

كلّما أراك ينبلع الصبح من الفجر

وينحد القمر بالأرض

كلّما أراك ينقسم الوطن إلى نصفين

ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

وينام شيطان فعلاّك

كلّما أراك أشبهي تقاحنين

وأشبهي عنقودا بلا عنب

كلّما أراك أصلي للرب ركعنين

وأردد ما كان مني، ...

كلّما أراك يصبح هذا الليل لها را

وأردد ما كان مني، ...

كلما أراك يصبح هذا الليل همارا
ويصبح هذا الأسود أبيض
كلما أراك أصعد من قلب المأساة
واحلم بعصفور في الأفق
كلما أراك أفتح لك أبواب قلبي
وأدق صورتك في الغيب



ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

كلما أراك أغرق في الحب
وحدي
وأحبك حتى الموت.
فهل يمكن أن نبصر الآن ؟

.....

كلما أراك تنبش في داخلي معركة
وتختل سير الكلام
كلما أراك يلبسني الخوف والشك
وتغيب - وحي تنلاشى

فألبي ولا ألبي ...

كلما أراك أتذكر كلاما كبيرا

وأخوض غمار الشوق

والخ من غير لا أدري

فيكبر حجمك ويكبر ...

كلما أراك أعلن عن نفس الطلب



وأحضر بين القلق والقلق

ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhrj.com>

فينشأ وجهي مكملا

وأدرك أحلامي وعيبي ...

..... ؟

كلما أراك أتوزع متفعلا

وأبهج مشائرا

فأتذكر وأنت في جسدي

أنني ملاح بلا شبكة

كلما أراك

تقاسمنا الرغيف

"لوزيانا"

شعر: فلة ميهوب



آسفة... أنا آسفة لوزيانا

أيها البوشية الساكنة الأمانة

ها نحن تقاسمنا رغيف المدينة

تقاسمنا الدمار، والموت والأهيار

وتقاسمنا وجود الشاشات والأخبار

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

بعد أن كنت وحيدة

صرنا معا على نصفي جريدة

أخناة تلاعبت بي الإيادي البوشية

وأنت حينتي تلقيت صفعات الإلاهية

تحملي حملنا أيها الهادئة المسكينة

أصمت... أصمت... وقل من أنت؟

أيها الصوت العنيف على مسمعي

أنا الموصل . . . أنا النجف وأنا الزعفرانية

جئت في صورة أمة

لأواسيك أينما الضحية

لأنني مثلك . . دمرت وعانيت من البوشية

تهديم الجوامع والديار ومسح التاريخ والآثار

القتل والجوع والانهيار



السرقة والنهب وخراب الديار

ARCHIVE

نحن لمحمد أحباب أحباب

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

ناديت مربي . . . وآلاف الموتى

يدعون مربي . . . مربي فاستجاب

الأبرياء . . . السجناء الكبار والصغار

فرد الصاع صاعين بالإعصار

أخناه هذا الذي قد صار

لا تنفعني . . . ولا تنوري

فيعود إليك إعصار العصور

لوزيانا... ها أنت للشاريع
دخلت... مثلي ومن كأسى جفرت
لوزيانا لماذا... أنت حزينة؟

ها أنا أقامر وأبسم
وأغسل بالتراب والدم
فستقضي السماء على البوشية
مثلما محت الفاشية

انظري لوزيانا سنأتيك هدية كبرى من السماء
حاكم السحاب والماء.

لوزيانا اقربي ووزعي هذه البرقية
على الأجباب والأصحاب وقولي لهم أن لا يعود إلي
قولي لهم أن يخرجوا من بدني
فبدني ملك... ملك يديا... ملك يديا

مجمع الجرذان : حديث البعث ... (1)

بقلم : الأستاذ البشير الرَّحوي

... ستّة أيام، ويقضى الأمر الذي فيه يستفتون... ستّة كفايات ويكون إثرها بعث ونشور... ليس ما بهم حين فيقضى على عجل، ولا هو من المعجز فيستغرق أكثر مما عزموا وأزمعوا.. ما هي إلا ستّة ويأتلف القوم على وفاق وإجماع...

... مازال بهمّ مجتمع "الهرر" غلظة وفضاضة، استأثر دونهم بالخير العميم فالتكثرت خزائنه من جهد أنوفهم في المجاري والتفائيات ما رفعوها عن تقصّي الغنائم، يحوسون بين مزابيل الخير يطلبون منها خراج الرضى، ويكتنون سياط الجوع فيهم بلذّة الطاعة وحرر الولاء محمّلة قوافلهم إلى ديار "الهرر" بأخر أوراق الثوت ودنان الحياء ومن حلق خارج سرهم وأبى إلا نفورا، فأفردوه وأعلنوا على الملأ براءة العرق مما يعتريه وسماحة الأعراف مما يدّعيه، واستفتوا رهبانهم أن يكونوا.

- بسم الحاكم القهار ذي الطول، ذي الحول، بيده الأمر من بعد ومن قبل... إن شرّ البليّة ما حكمته العجلة، وخير الأمور عاقبة، ما دبر فأحكم فعذل، أسّه الرويّة وقياده التّهي... أبناء عمّ، إني أراكم بين فكّي التّدامة تنهشكم وتفتّت إزركم، فانظروا ما أنتم فاعلون... إها "الهرر" وعزّها، واللّه ما دلّت منذ عزّت ولا نكّصت لها رايات، أصبّوها برأسي وقولو قيمنا قد جبن، وإني من تعرفون بأسا وجلدا،

ولكنّي أرى بكم غفلة وأرى لكم مخرجا، فانظروا ما أنتم فاعلون...!
أسقط في أيدي الجماعة وبلغت الأفئدة الحناجر، فاسترسل شيخهم
واعظا:

- يا معشر الجرذان، إنّ للهرر لسطوة لا قبل لكم بها، فأوفدوا لهم
بالرّضى والخنوع، وابسطوا لهم بسط الإلف لعلنا نصيب عزّا بعزّهم أو
يطالنا غيظ من فيضهم..

مقصلة "الهرر" في صفده ووتر حبال وصله... فكان إفناء، وكانت
مقصلة...

... كانوا زمرة من "الجرذان" نادى بهم مناديهم أن: "هلمّوا أثلافا
وأتفاقا... قد ضقنا بسقط "الهرر" ممّا تجود به بحاريهم وتعطر به
نمايقهم... إلا ضحّة هز الأركان فتعمر الدّيار ويخصب البوار... حتدام
رزقكم هب وقوتكم نزر...؟ هل طبنم نفسا أن استنوق جملكم
وسارت الرّكبان بأخبار تعسكم قوموا على مجد إني لكم من
الواعظين...!"

صادف النداء فيهم جهدا مقطاعا وعزما مردادا ورغبة تستدني فلا
تدني... ولكنهم على غبنهم أثفقوا وعلى ستّة الوفاض ائلفوا... ماهي
إلاّ أيام سنّدة فيها يكيدون وفيها يرتقون... ستّة للمحاض ثمّ ولادة
وانبعاث...

حدّث شيخُ الفُترانِ، وَكَانَ قِيَمَهُمْ عَلَى الْأَعْرَافِ وَمَا تَحْكُمُ بِهِ
الْمَوَاتِقُ، قَالَ:

وَلَا هَذِهِ دَارُكُمْ، كُنْتُمْ سَادَةً مَلَائِكَةً الدُّنْيَا وَشَعَلْتُمْ الْأَنَامَ بِهَا صَنَعْتُمْ... فَقُومُوا إِلَى مَجْدٍ هُوَ لَكُمْ وَلَسْتُمْ، وَاللَّهِ، تَفْعَلُونَ غَيْرَ أَنْ تُعِيدُوا الدَّرَّ إِلَى مَكْمَنِهِنَّ وَمَا أَحْسَبُ "الْمَرَرَّ" نَدًا لَكُمْ إِنْ تَكُنْتُمْ وَقَدْ أَلْفَقْتُمُ الْخَوْضَ فِي الْمَحَايِ وَخَيْرَتِ أَنْفُسِكُمْ كُلَّ قِمَامَةٍ وَإِنْ عَزَّتْ، قَوْمَ نُؤُوفٍ كُنْتُمْ وَذَوِي أَنْفَةٍ تَظْلُونَ...!

سَرَدَتْ حِمَمُ فِتْنَى الْجُرَذَانِ فِيهِمْ سَيْرَ النَّارِ فِي الْمَهِشِيمِ فَاتَّقَدَتْ حَذُوثُهُمْ وَاشْتَعَلَتْ حَمِيَّتُهُمْ، فَهَبُوا بِالتَّهْلِيلِ:

-بُورِ كَتَّ فِتْنَتَا، الرَّأْيُ مَا رَأَيْتَ، وَالْحُكْمُ مَا حَكَمْتَ..!

وَالْبَرَى مِنْ بَيْنِ الْجَمَاعَةِ جُرَيْدٌ مُتَأَنِّقٌ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْعِرْقَانِ وَصَاحِبَ دِرَايَةٍ، ضَرَبَ فِي الْمَجَارِي تَرْخَالًا وَتَحْوَالًا فَاخْتَبَرَ مَلَأَ كَثِيرَةً وَخَيْرَ نَحْلًا عَدِيدَةً، فَشَقَّ تَهْلِيلَ الْجَمَاعَةِ بِصَوْتِ جَهْوَرِيٍّ عَلَيْهِ لُكْنَةٌ مُسْتَمْلَحَةٌ تُجْلِي تَأَثُّرَهُ بِمَا تَقَعُ مِنْ لُغَاتٍ، وَأَدْلَى بِدَلْوِهِ فِي مَا يَخْطُونَ...
<http://Archive.org/Sakhr.com>

حَدَّثَ عَارِفُهُمْ قَالَ:

-بِسْمِ الْعَالِمِ الْعَلَامِ فَضَّلَ أَهْلَ الْعِلْمِ وَالْيَقَانِ..إِخْوَانِي، يَا أَصْحَابَ بَدَا عَلَى الْقَوْمِ نَفْحٌ مِنَ الرِّضَى فَهَبُوا بِالتَّهْوِيلِ:

-بُورِ كَتَّ شَيْخَنَا...الرَّأْيُ مَا رَأَيْتَ، وَالْحُكْمُ مَا حَكَمْتَ..!

فَاتَبَرَى فِيهِمْ فِي الْقَوْمِ رَحْمًا: "هَذَا ظِلٌّ لَا نَسْتَظِلُّ بِهِ وَذِي دَارٍ لَا سَكَنَ فِيهَا، أَتَيْهَا الْغَافِلُونَ إِنَّمَا يَدْعُوكُمْ شَيْخُكُمْ بُورًا، أَفَأَنْتُمْ مُلْبُونَ...؟ وَاللَّهِ مَا لِهَذَا جُمُعَتَا، وَلَا بِذَا تَطْيِبُ الثُّفُوسُ وَتَهْتَأُ، فَاسْمَعُوا إِنِّي لَكُمْ مِنَ الْمُنَبِّهِينَ"

فَذَهَبَتْ عَنِ الْقَوْمِ سَكَرَاتُ الرِّضَى وَمَالُوا إِلَى فِتْيِهِمْ حِرْصًا وَإِصْغَاءً
فَأَحْكَمَ قِيَادَهُمْ بِدِيَارِجَتِهِ وَأَوْثَقَ نَفْسَهُمْ بِحُكْمِهِ..
حَدَّثَ فِتْيَهُمْ قَالَ :

-بسم القاضي العدل قد تَوَعَّدَ وَيْلًا لِلظَّالِمِينَ وَوَعَدَ بِالْثَّصْرِ كُلَّ
مُسْتَضْعَفٍ مِسْكِينٍ، مَا زَالَ الْحَقُّ قَائِمًا مَا قَامَ سَادَتُهُ، وَمَا فَتِيَ الظُّلْمُ
سَيِّدًا مَا عَاشَ عِبَادَتُهُ... آيَهَا الْغَافِلُونَ أَفَيقُوا فَهَذِهِ سَاعَةٌ لَكُمْ فِيهَا مَا
تُخْتَارُونَ.. فَإِنْ ثَوْرَةٌ فَغَزْ، وَإِنْ خُنُوعًا فَذَلْ فَانظُرُوا مَا أَنْتُمْ فَاعِلُونَ... يَا
مَعِشَرَ الْجُرْذَانِ وَاللَّهُ مَا هَذَا مَقَامَكُمْ.

-بسم الحكم، قَصَّ الْقِصَصَ وَضَرَبَ الْأَمْثَالَ وَخَصَّ الْمُخْلِصِينَ بِالْحِكْمَةِ
وَالْبُرْهَانَ، أَبْنَائِي وَإِخْوَانِي، يَا أُمَّةَ الْجُرْذَانِ إِنِّي أَرَأَكُمُ فِي صَحْبٍ كَبِيرٍ،
وَكُلٌّ يَزْعُمُ أَنَّ بِحُوزَاتِهِ مَقَالِيدَ الْفَرْجِ وَالْخِلَاصِ فَيُرَى الْحَقُّ حَقَّهُ وَيُرَى
الْآخَرِينَ ضَالِّينَ... وَالْحَقُّ أَقُولُ: إِنَّ فِي كُلِّ مَا بَارَكْتُمْ مِنَ الْأَرْءِ بَعْضًا
مِنَ الْحَقِّ، وَلَعَلَّكُمْ تُصِيبُونَ الْحَقَّ كُلَّهُ إِذَا وَحَدْتُمُ الْأَرْءَ وَجَمَعْتُمْ هِمَمَكُمْ،
فَالرَّأْيُ عِنْدِي أَنْ نَمْدَّ بِمَجْلِسِنَا بِالمَشُورَةِ وَالتَّشَاوُرِ، فَلَا خَابَتِ أُمَّةٌ يَبْنِي فِيهَا
رَأْيُهَا جَمْعًا وَلَا خَيْرٌ فِي قَوْمٍ أَوْكَلُوا أَمْرَهُمْ إِلَى فَرْدٍ... فَتَعَالَوْا نَرِ أَمْرَنَا فِي
سِتَّةِ مِنَ الْأَيَّامِ نَضْرِبُ الرَّأْيَ بِالرَّأْيِ وَالبُرْهَانَ بِالْبُرْهَانِ فِي دَعَا وَوَنَامِ،
نُقَلِّبُ الْأُمُورَ كُلَّ مُنْقَلَبٍ فَنَرْتَقِ مَا فَتَقَّ وَنَجْمَعُ الشَّمْلَ لَعَلَّنَا نَصِيبَ الْيَقِينِ
فَيَكُونُ بَعَثٌ آخِرٌ وَتَكُونُ حَيَاةٌ جَدِيدَةٌ..!

فَعَادَتِ الْجُرْذَانُ إِلَى تَهْلِيلِهَا بِأَشَدِّ مَا كَانَتْ عَلَيْهِ وَرَاحَتْ تَرْدَدُ فِي غِبْطَةٍ
عَظِيمَةٍ:

-بُورِ كُنْتَ حَكِيمَنَا، الرَّأْيُ مَا رَأَيْتَ، وَالْحُكْمُ مَا حَكَمْتَ...!
وبدا أَنَّ سَهْمَ الْحَكِيمِ قَدْ أَصَابَ مَرْمَاهُ فَانْفَضَّ مَجْلِسُهُمْ عَلَى رِضَى وَأَمَلٍ
بِسِتَّةِ الْوَفَاضِ...

اليَوْمُ الْأَوَّلُ : نُطْفَةِ...

أُخْتِيرَ الْمَجْلِسُ فِي أَعْبَقِ رَكْنٍ مِنَ الْمَجَارِينِ كَانَ مُلتَقَى الْمَصَبَاتِ وَجَمَعَ كُلَّ
التَّفَايَاتِ، فانتشرت الروائح الزكية مما يستلذّ الجرذان في كُلِّ زاويةٍ،
وعَمَّتْ سماء المكان أبخرة من الضباب أضفت عليه جَوْاً من الشاعرية
العجيبة، وبدأ أَنَّ الْفُثْرَانِ مَا زَالُوا لَمْ يَفِيقُوا بَعْدَ مِنْ سَكْرَةِ الْخُبُورِ إِذْ
اجْتَمَعَ أُنْمَتُهُمْ عَلَى رَأْيٍ وَاحِدٍ : سِتَّةِ الْوَفَاضِ، وَمَا كَانُوا مِنْ قَبْلِ
يَجْتَمِعُونَ، فَعَلَتْ الْأَهَازِيحُ بِالصَّفِيرِ وَالتَّهْلِيلِ.

وَكَانَتْ الصَّفُوفَةُ مِنْ قَوْمِ الْجِرْدَانِ تُثَدِّي شَيْئاً مِنَ الْخُبُورِ الْمَصْطَنَعِ وَكُلُّ
يَعْدُثُ نَفْسُهُ بِفُوزِ رَأْيِهِ عَلَى بَقِيَّةِ الْأَرَاءِ، وَنَفَازِ حُكْمِهِ فِي الْقَوْمِ، وَبَدَا
أَنَّهُمْ لَا يُرِيدُونَ إِضَاعَةَ يَوْمِهِمُ الْأَوَّلِ فِي صَنْحِ التَّهْلِيلِ وَضَحَّةِ
الْأَهَازِيحِ، فَتَدَارَكُهُمْ حَكِيمُ الْقَوْمِ بِحُكْمَتِهِ : "يَا عَلَيْهِ الْقَوْمُ وَصَفُوفَةُ
الْجَمَاعَةِ هَذَا يَوْمٌ لَنَا مَا بَعْدَهُ، فَلِكُلِّ مَقَامٍ مَقَالٌ، وَهَذَا مَقَامُ الْعَائِدِينَ
بِالْفَرَحِ مِنْ كَدَرٍ مُتَقَادِمٍ، الْمُسْتَعِيثِينَ بِالشَّمْلِ بَعْدَ شَتَاتٍ مَرِيرٍ، فَاتَرُكُوا
الْقَوْمَ لِفَرَحِهِمْ وَابْتَهَجُوا مَعَ

لَيْسَ تُثْنِينَا الْمَخَاطِرُ	لَا نَهَابُ الْمَوْتِ يَوْمًا
قَوْمٌ فَأَرْفَلُنَا جَاهِرٌ...!	أَيُّهَا الْجِرْدَانُ هُبُوا
لَا نُكَابِرُ... لَا نُكَابِرُ...!	كُلُّنَا فِي أَلَمٍ جُرْدٌ

زُمرّةً للمُجدِّ قُمتنا لا بُنالي أو نُأخِرُ
قَدْ بَنَيْتَا لِلْعُلَا وَالْـ عَزَّ مَجْدًا فَلْنُفَاخِرُ
كَيْفَ لَا؟ والمجدُ فينا مُدَّ رَسَوْنَا لَا يَسَافِرُ
أَيُّهَا الْجِرْدَانُ هُبُوا قَوْمَ فَأَرِ فَلْنُجَاهِرُ...
كُلُّنَا فِي الهمِّ جُرْدُ لَا نُكَايِرُ... لَا نُكَايِرُ!
وانقضى أول الأيام الستة في التهليل بذكرهم الخالدة ومباركة فرائح
شعرائهم، وانقضى بجمعهم بعزم الماضي لليوم الجديد.

اليوم الثاني : علقه...

اجتمعت الفئران في مجمع الوفاض تتعالى حناجرهم بنشيدهم المقدس
المبتهجين... والله إنه ليوم عظيم وإنه لَجَمْعٌ جَلل فاجمعوا شعراءكم
وكلُّ مشغل بالبيان لعلنا ننظم ما تترنم به الألسنة وتحفظه الأفتدة
فيكون نشيدا لجمعنا ووثيقة لمن يأتي في أعقابنا
فعلا هتافُ القوم الحكيم:

-بُورِكتَ حَكيمنا، الرأى ما رأيت، والحكم ما حكمت...!
فأوفدت كلّ فئة من الجرذان شاعرها، واجتمع لنشيد المجمع كلّ فصيح
مبين فحاضو في الموازين وجالوا في كلّ معنى أثير فتمخض جمعهم عن
درة دُرهم وحافضة مجدهم علاهما نشيدهم واهترز لإيقاعها بجمعهم...:

أَيُّهَا الْجِرْدَانُ هُبُوا قَوْمَ فَأَرِ فَلْنُجَاهِرُ
كُلُّنَا فِي الهمِّ جُرْدُ لَا نُكَايِرُ... لَا نُكَايِرُ!
نحنُ فئرانُ المحاري نحنُ أبْطالُ كواسِرُ

ذائع في كُلِّ طينٍ عِطْرُنَا، بادِ وسافرِ
 رَنَحُوا ضُمائرهم إلى ثمرة يومهم الثاني بعد درّة الأُمس، فهمَ شيخ
 الجماعة بالخوض في معترك وفاضهم إلّا أنّ فتيّ الجرذان قفز إلى الغمار
 ورام الفوز بالمبادرة، ولكنّ حظّه كان لسابقه إذ تدخّل عارن الفئران
 وطلب الإذن بالكلام.. ومضى علىّ القوم في صراع الرّيادة ولم يشأ أيّ
 منهم تركّ المبادرة، فعاد المجمعُ إلى خُواره عودًا على بدء: "الحذر،
 الحذر..!"

الرأي مارأيّت..! الثورة، الثورة..! الحكم ما حكمت..! الحيلة،
 الحيلة..! الرأي ما رأيّت..! الحكم ما حكمت..!"

علّا صخبُهم وكاد يودي بشملهم لولا أنّ حكيم الجماعة أدركهم :
 - يا أمة المجاري والغايات، ما هكذا ندار الأمور، ولا هكذا تدرك
 الغايات، إن هي إلّا مشورة يدلو كل فيها بدلوه فنختار لنا سيدا لمجمعنا
 يديره ويصرّف شؤونه، إليه نحتكم وبه نستهدي...

وبدا أن رأي الحكيم قد أصاب نوازع في نفوس الصّفوة تهفو إلى
 الزّعامة، فشاركوا القوم في التهليل: "بوركت حكيمنّا، الرأي ما رأيّت
 والحكم ما حكمت..!" فامتطى الحكيم صهوة قهليلهم وراح يكمل
 تدبيره:

- أيها القوم، إن للمشورة أحكاما تراعى فتقيّدوا بها . إني
 أرى أمركم بين أقطاب ثلاثة: قطب يدعوكم إلى سكينه وسلامة وآخر
 يرى خيركم في ثورتكم، وثالث يناديكم إلى بحانسة تتطبّعون فيها بطبع

"الهرر"، وفي كلّ رأيتم بركة، ولكلّ هلّتم، فإن اخترتم سيّدكم من هذه الأقطاب الثلاثة إستأثر بحكمه ولم يصغ إلى غير رأيه، فالحكمة تدعوكم على توحي الحياد، فاختاروا من لا رأي له يسمع كلّ الآراء ويصغ إلى ما تعتزمون...!

فصعق الصّفوة، وعلموا أنّ حكيم القوم إنّما كاد كيده وفاز بما طمعوا، فأسلموا إلى تدبيره وحال سرّهم تأوّه: "إيه... يا حكيمننا...! احلب حلبا لك شطره...!" وما كادوا يفعلون حتّى علا المجمع هتافا: "لايسودنا إلّا الحكيم، لا زعيم إلّا الحكيم...!" فأظهروا المبايعه كرها وأضمرّوا الرّدّة إلى حين.. وانقضى يومهم الثاني في التهليل لزعيمهم المختار، وانفضّ مجمّعهم بعزم الماضي لليوم الجديد.

اليوم الثالث : مضغة ..

اجتمع الجرذان في ثالث أيام الوفاض، وقد بات لهم زعيم عقدوا عليه آمالهم ورأوا الخلاص في حكمته ونفاذ حكمه، فاستهلّوا يومهم بالمباركة والتمجيد، فأهلّ عليهم زعيمهم وقد تخلّص من لحيته الكثيفة ورمى عنه بعكازه فإذا هو جريز فتّي ينطّ بين الجموع نظّاء، وراح يحول بين عيون ترمقه بنظرات مستغربة غير مدركة سرّ هذه الثقله العجيبة من شيخ الأمس إلى فتّي اليوم، ومن العمامة والعباءة إلى تأنق الحاضرة، ثمّ اعتلى ربوة من التفاريات في أرفع مكان من مجمع الوفاض وراح يخطب في المجمع:

- أيّها الجرذان، لقد حمّلتُموني عبثا تنوء دونه الجبال فأنخت له

كاهلي حبًا وكرامة، وإلّكم لتعلمون أنّي ما سميت إلى زعامة وما رغبت في ريادة، ولكنّه الواجب ناداني أن هلمّ لخير قومك فقلت :
 لبيك، لبيك... يا قومي...! لاشكّ أنّكم تذكرون أنّنا ما جمعنا إلّا لننظر
 في أمر معاشنا وصغار شأننا حيال سطوة الهرر، وقد خاضت نخبتكم
 في الأمر وأدلى كلّ بدلوّه وقد سمعتم ووعيتهم، وليس لكم إلّا أن تختاروا
 سبيلكم، فليكن اقتراع وليكن انتخاب، ثمّ فليكن بعد ذاك إجماع..!

فاهتزّت البخاري بهتليل جموع الفئران: "بوركت زعيمنا..! الرّأي ما رأيت!
 والحكم ما حكمت..!"، فركب الزّعيم قهليلهم وتمادى في تدبيره: "يا سادة
 القوم...! فليذلّ كلّ بيّانه وليحتجّ كلّ لرأيه، سيكون بعد ذاك رأي وسيكون
 قرار..." ففترّق الجمع أحزابا وشيعا: حزب الطّاعة والسّلامة، يخوض فيه شيخ
 الجرذان يخوضه عن سطوة "الهرر" وطولها وصغار الجرذان وقصورهم وتشتّت
 شملكم فرقا وأحزابا، فكلّ يميل إلى صاحبه ويدّين ببيعته، فلا أرى لكم إلّا أن
 توكّلوا أمركم إلى صاحب رأي ودراية خير ثمّ ثقته وذاعت فيكم حكمته، وليكن
 من غير المتخاصمين حتّى لا يحكم رأيهم ويصرفه حبّ النفس عن محبة الحقّ..

فلم يكن أمام الجماعة، وقد شطّ الخلاف بين صفوفهم إلّا حكيمهم الزعيم ،
 فهبّوا بالتهليل والمباركة: "الرأي رأيك، والحكم حكمك..! الرّأي رأيك ،
 والحكم حكمك..." ومضوا في تهليلهم كأنّما هم يردّدون نشيدا يستهويهم، وظلّ
 نخبتهم في صراعهم غافلين أو متغافلين، كلّ ينادي نداه الأخير، وما أفاقوا إلّا
 على مباركة الزّعيم جردانه على اختياره الفصيل في نزاعهم والفاروق بين
 متخاصمهم.

وانقضى يومهم الثالث في التهليل بفيصلهم المختار، وانفضّ بمجمعهم بعزم

يتبع ...

المضيّ ليوم الفصل...

الجبّة

قصة : تشيخوف

ترجمة : ساسي حمام

ليلة من ليالي شهر آب الساكنة يتصاعد من الأرض بخار يلف كل ما يقع عليه النظر بكفن رمادي، يظهر الضباب تحت ضوء القمر تارة كالبحر الساكن وطورا كالجدار الأبيض السميكة. النسيم ندي وبارد. لم يبق لتباشير الفجر غير ساعات قليلة. على بعد خطوات من المسرب المحاذي للغابة يلمع ضوء. هناك ترقد تحت شجرة كثيفة الأغصان جبّة مغلقة بقمماش جديد أبيض اللون وضعوا على صدرها أيقونة من الخشب قريبا من الجبّة جلس "الساهران" قرويان يؤديان أشق وأبشع سخرة يقوم بها قروي. الأول بدين شاب قوي شواربه لا تكاد ترى حواجبه سوداء كثيفة يرتدي فروية ممزقة يجلس على العشب الندي مادّا رجله، رقبته ممدودة إلى الأمام يتنفس بعنق منهما كما من تحت ملعقة من قطعة خشب لترجية الوقت.

الثاني كهل قصير القامة، نحيل، تبدو على وجهه آثار مرض الجدري، له شوارب قليلة الشعر وعثنون تيس، يضع يديه على ركبتيه يحمل في النار بلا مبالاة، بينهما بحمرة نارها خافتة تضيء وجهيهما بأشعة حمراء. صمت مطبق يخيم عليهما. لا يسمع غير صرير الحطب تحت السكين أو طقطقة الأغصان الندية في النار.

قال الشاب:

- إيه... سيمون... لا تتم...

تتم العثنون:

- أنا لست نائما...

- حسن!... حسن! لا يشعر الإنسان بالراحة عندما يكون وحيدا،
الخوف يملكه، يجب عليك أن تقول شيئا...

- أنا ليس عندي ما أقوله...

- أنت غريب! سيمون... الآخرون يضحكون... يروون الحكايات...
ينشدون... وأنت... لست أدري من أي شيء خلقت؟ تجلس هنا
كفراة في حد. تعب عينيك بالتأمل في النار... أنت لا تستطيع
تركيب جملة واحدة... أعتقد جازما أنك غير بعيد عن الخمسين...
صي أفصح منك... ألا يقلقك أن تكون أبله...

- نعم... أجاب العثنون بحزن <http://Archivebeta.Sa>

- تعتقد أننا لا نتألم لغباك؟ أنت رجل شهيم... لا تشرب... المصيبة
أنك أجوف الرأس... إذا حرمك الله من الذكاء فأبحث عنه بنفسك...
ابذل قليلا من الجهد... سيمون... إذا قال أحدهم كلاما طيبا...
فأحفر... حاول أن تفهم... فكر... ثم فكر من جديد... وإذا لم تفهم
كلمة فابذل مجهودا لتعرف ماذا تعني... أفهمت؟ ابذل مجهودا! وإذا لم
تحاول أن تفهم فإنك ستموت غيبا... أحقر الرجال...

انطلقت فحاة من الغابة آنة طويلة... يظهر أن شيئا انطلق من قمة
شجرة حرك الأغصان وسقط على الأرض... أعاد الصوت صدى

مكتوم... ارتعد القروي الشاب ونظر إلى رفيقه متسائلا

تتم سيمون

- إنه يوم يصطاد العصافير الصغيرة

- ولكنه فصل هجرة العصافير إلى البلدان الحارة ؟

أحقا إنه فصل الهجرة ؟

- ألم تشعر بالبرد الآن. بررر... الكركي حيوان رقيق، سريع التأثر

بالبرد... هذا البرد يعني بالنسبة إليه الموت... أنا لست كركي ولكني

أشعر بالبرد ينخر عظامي... ضع الحطب في النار.

نفض "سيمون" وغاب في الغابة، يقطع ويجمع الأغصان الجافة، بقي

رفيقه وحيدا يرتعد من الخوف حاجبا عينيه يديه... ظهر سيمون يحمل

حزمة من الأغصان وما أن وصل حتى رماها في المحمرة. لحست النار

الأغصان السوداء بالسنة الصغيرة ثم فجأة ارتفعت أرتفعت ألسنتها

فأضاءت بأشعة حمراء الوجوه والطريق والكفن الذي رسمت عليه يدا

الميت وقدماه...

انحنى الشاب والهملك في عمله بعصبية، جلس العنثون جلسته السابقة

وبقي كعادته يتأمل السنة اللهب.

تصاعد فجأة في صمت الليل صوت حاد منشدا. الربّ يخزي...

الخائنين... " ثم تناهى إلى سمعهما وقع خطوات ثقيلة، في الطريق ظهر

خيال راهب يرتدي جبة قصيرة ويضع على رأسه مظلة عريضة ويحمل

على كتفه خرجا.

قال الخيال بصوت مرتفع :

- رأيت نورا في جوف الظلام فشعرت بالسرور... قلت أولا... إنهم حراس الماشية... ثم تخليت عن هذه الفكرة عندما لم أر خيولا... ثم قلت إنهم سراق أو قطاع طرق يترقبون رجلا غنيا؟ ولكن... أليس الفجر هم الذين يقدمون القرابين لآلهتهم؟ فكرت في ذلك فشعرت بالسرور... قلت في نفسي... أذهب إليهم يا "تيودوز" خادم الرب وتقبل تاج الشهيد! انطلقت نحو النار كفراشة ذات أجنحة رقيقة... ها أنذا أمامكم وحسب مظهركم فإنكم لستم لصوصا أو قطاع طرق أو وثنيين... السلام عليكم.

- وعليكم السلام...

ARCHIVE

- أخوأي هل تعرفان طريق معمل آجر "ماكوخين" - إنه قريب من هنا... اتبع هذا الطريق... تقطع كيلومترين... تصل إلى "أنانوف" قريتنا... هناك أبي... ثم تسلك الطريق على يمينك بمحاذاة النهر وبعد مسافة قصيرة تصل إلى معمل الآجر.
- الله يمتنعكما بالصحة! وأنتما ماذا تفعلان هنا؟
- إننا مسخران... ألا ترى أن هناك جسدا؟
ماذا؟ أي جسد؟ يا إلهي..!

رأى المسافر القماش الأبيض والأيقونة فارتعدت فرائصه واهتز كيانه كأنه ضرب بمراوة... دار حول نفسه وجحظت عيناه وتسمر في مكانه... بقي واجما بعض الوقت غير مصدق لما يرى... ثم غمغم:

- يا إلهي! ... أيتها العذراء! كنت أسير بسلام... لم أسئ لأحد...
وفجأة هذا العقاب...

تساءل الشاب

- من تكون أنت؟ هل أنت راهب؟

- لا... انتقل من دير إلى دير... هل تعرف أن مي... ميشال
بوليكاربوف مدير معمل الآجر؟ أنا ابن أخته... يا إلهي... ماذا
تفعلان هنا؟

- نحن حارسان... إنه أمر...

قال لانس الجبة واضعاً يديه على عينيه:

- آه... نعم... ومن أين الفقيد؟

- عابر سبيل... ARCHIVE

- آه... يا صديقي... إني ذاهب... ملكي الخوف... إني أخاف
الأموات... عندما يكون حيا لا نعيه أي اهتمام... وعندما يموت
نرتعش أمامه وكأننا أمام قائد مظفر... آه... يا صديقي... هل قتل؟

- الله أعلم!... ربما قتل... ربما مات موتاً طبيعياً...

- نعم... نعم... من يدري... ربما سكنت روحه الجنة...

قال الشاب :

- روحه مازالت هائمة حول الجنة... لن تبعد عن هذا المكان قبل
ثلاثة أيام

- إني أشعر بالبرد... يجب أن أسلك الطريق المستقيم...

- إلى أن تصل إلى القرية وهناك تسلك طريقا على يمينك يحاذي النهر...

- يحاذي النهر... حسن... ماذا أفعل هنا؟ يجب علي أن أذهب... وداعا يا صديقي! قطع لابس الحية بضع خطوات ثم توقف:

- نسيت أن أضع قطعة لدفنه... هل يمكن أن أضع قطعة نقدية...

- أنت العليم بهذه الأمور... بما أنك تنتقل من دير إلى دير.. إذا كان موته طبيعيا... القطعة النقدية تنفع روحه وإذا انتحر فهي خطيئة.

- صحيح... ربما انتحر حقا! إذن من الأحسن أن أحتفظ بالقطعة

آه... الخطيئة... الخطيئة... لقد قدموا لي ألف روبل ما مكثت بهذا المكان... وداعا يا صديقي

ARCHIVE

ابتعد متباطئا ثم وقف من جديد:

- لا أدري ماذا أفعل؟ أنا أمكث هنا قريبا من النار في انتظار

طلوع النهار... هذا يخيفني... ولكني أخاف أيضا من الطريق... شاري

طيف الميت في الظلام... هذا عقاب إلهي... قطعت خمسمائة كليمترا

بدون مشاكل... ولما اقتربت من منزلي داهمتني هذه المصيبة.. لا

أستطيع أن أواصل السير...

- حقا... ألهذا الحدّ هو مخيف؟

- لا أخاف الذئاب أو قطاع الطرق أو الظلام الخالك ولكني أخاف

الأموات... أليس من حقّي أن أخاف؟ أتوسل إليكما أن يصاحباني إلى

القرية.

- ممنوع علينا الإبتعاد عن الجثة

- لن يراكما أحد... صديقي... أؤكد لكما أن أحدا لن يراكما...
سيجزيكما الله عني خير جزاء... آه! يا صاحب العثون... رافقي...
لا أطلب منك غير هذه الخدمة! يا صاحب العثون مالك لا تقول
شيئا؟

قال الشاب:

- إنه أبلهنا

- رافقي أيها الصديق وأعطيك خمس كويكات!

حك الشاب قذاله وقال:

- من أجل خمس كويكات يمكن أن يقوم الإنسان بهذا العمل...
ولكنه ممنوع... أرافقتك إذا قبل الأبله أن يبقى وحيدا... "سيمون" هل
تبقى وحدك هناك؟ <http://Archivebeta.Sakhril.com>

قال الأبله :

- نعم...

- موافق... إذن لنذهب!...

نفض الشاب وسار مع لابس الحية وبعد مدة غاب صوتا هما في
الفضاء واضمحلّ وقع خطواتيهما... أغلق "سيمون" عينيه ونام...
انطفأت النار رلف الظلام الجثة.

في مكتبة الإتحاف

البحث عن الواقعية الاجتماعية من خلال المجموعة القصصية

زوايا .. وخفايا: للكاتبه بهيجة الدلاي

بقلم : عبد المجيد البراهمي

الحقيقة أنه لا يوجد لحدّ الآن تعريف دقيق لماهية القصة القصيرة أو ما يعبر عنها بالأقصوصة، فهل هي "Nouvelle" أو "Petit recit" ومع ذلك أجز لنفسي القول بأن الأقصوصة اليوم، هي في مجمل الأحوال نمط أدبي كان قدما يعرف الحكاية "Conte" وله وحدة نصية ومنهجية يفرضي بها الكاتب إلى حل ينغلق معه الموضوع بسرعة مع ذلك نجده طافح باللغزية ثري بالدلالات.

وأنت تقرأ مجموعة "زوايا وخفايا" تجد أن أغلب هذه الأقصوصات توحدت من حيث الموضوع حول: الزيجات الفاشلة، وهي تحكي عن السيرة الذاتية لأبطالها مع تكرار سردها لعنصر قار وواحدي ألا وهو شخصية المرأة الضحية، نتيجة للشعور اللاإنساني الذي طبع حياتنا الاجتماعية المعاصرة، وبالتالي غياب واجب الاحترام للذات البشرية فسيطرة التهور والسذاجة والانقياد إلى الهزيمة نتيجة - للعواطف المشبوهة- على حدّ قول القاصة نفسها، التي جعلت من وظيفة السرد تعبيرية إنطباعية ليس إلّا.

لقد تميّزت هذه الأقصوصات بالرغم من رتابتها اللغوية، بدقة الوصف لشخصياتها، فـ "عمي حسن" و"نجية" أو "نبيل" أو "حورية"

أو "جمعة ودحمة" و"جلال" و"نورة" و "حسين" وكما يجب أن يلقيه الناس "حسنو" و"لزهو" و"نفيسة بنت سي بكار" و"نانا تركان" وغيرها من سائر الشخصيات الواردة بتلك الأقصوصات هي فعلا تعيش بيننا سواء في الحي أو في مقرات عملنا... وبذلك تكون الكاتبة بمحنة الدلالي قد تبنت الوافعية الاجتماعية كمنحى قصصي بتناولها جملة الأحداث وتلك الشخصيات، ولكن في علاقة شبه متواترة مما جعل تلك الأقصوصات، خالية من عنصر البنية اللغوية للأحداث وعنصر المفاجأة.

إنني وللأمانة لم أقرأ للسيدة بمحنة الدلالي غير هذه المجموعة القصصية. وعليه فلا مجال لمقارنة نصها بنص قصاص آخر متمرس ولكن كان نصها قد لامس الواقع بشكل ملفت، هذا مما لا شك فيه لكنه لم يرتدي لباس اللغة، اللغة التي تفرض حضورها بحركة دائبة ومستمرة فتجمع شعث الفكر وشتاته. فالأقصوصة شأنها كشأن القصة يسعى الكاتب دائما إلى استنفار طاقته اللغوية في الاستثمار الدلالي للشخصيات المحورية وفي ربطها بزمانها ومكانها للتعبير عن قلقها الوجودي، الكوني.. لقد كان مستوى السطح أبرز من مستوى التفاصيل وصور السرد غيّبت عنا التوتر والتساؤل عما يستأثر اهتمام المتلقي والناقد على حدّ سواء.

"زوايا وخفايا" محاولة جريئة جدًا تناولت جانباً لا بأس به من أشكال الدراما الاجتماعية والنفسية التي نتابع صداها تقريبا يوميا على

صفحات الجرائد والمجلات التونسية والأجنبية ولم نفي بالحد الأدنى المطلوب في معالجة آثارها السيئة والبحث بأكثر جدية عن أسبابها ومسبباتها. ولم أقطع دابرها.

وخلاصة القول إنّ هذه المجموعة أثار انتباه بتقديمها لزوايا نظر اجتماعية وخفايا عن صور للمرأة وللرجل وللعائلة دون أن تستكشف الحديث عن ذلك ومن هنا تكمن أهميتها.

الهوامش :

* مجموعة قصصية صادرة عن دار الإتحاف للنشر 2004

* أنظر مثلاً أقصوصتي : العائد ولزهر

